



الغسق

ثروت اباظه



الفُفْران

ثروتُ أباظه

الفُفْران

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

(١)

حين الزمان غريز ، والأيام آفاق عريضة من الابتسامات ، والناس
يصدرون عن طيبة خالصة ، والضمائر نقاء صاف ، والحب يختلسه
المحبون فيما يحسبون أنهم بنجاء من العيون الرواصد . بينما أمرهم علن
مهموس وحديث دائر كلما اجتمع من الأسرة اثنان ...
أحب صابر عبد المعين ابنة خاله وداد الرحمانى ..
كان صابر عبد المعين فى المدرسة الثانوية موشكا أن ينال شهادة
البكالوريا ، وكانت وداد قد تركت المدارس وبقيت فى البيت ..
وحين نال صابر البكالوريا خفقت بقلب وداد رعشات الأمل ،
وتماوجت بين جوانحها ألوان من الفرح شتى تنتمى — وإن كثرت
أشكالها — لأب فرد هو الحب .
وذهب مفيد الرحمانى لهنئ ابن أخته بالشهادة التى نالها ، وذهبت فى
رفقته زوجته ألفت وابنتهما وداد .
 واجتمعت الأسرة فى بيت عبد المعين حماد تظلمهم من السعادة سحابة
حببية ، فقد كان ذلك العهد يعيش فى وفرة من المودة والصفاء الذى
لا يعرف الحقد أو الحسد أو البغضاء .
وكان ابن الأخت ابنا لخاله أيضا وابن الأخ ابنا لعمه ، وابنا لكل من فى
عمر الأب من الأقارب أو ممن ينتسب إلى الأسرة بآصرة نسب

أو وشيجة صداقة .

وقال عبد المعين :

— يا مفيد قل يا رحمن يا كريم .

وقال مفيد وقد أدرك بحاسته إلى أين سيذهب الحديث :

— سبحانه جل شأنه ..

— أنت تعرف أننا ناس من الفلاحين ، من الأرض نعيش وعليها بعد

الله اعتمادنا ..

وقال مفيد محاولا التسلل إلى جدية الحديث بشيء من الندى :

— كأني أعرفك اليوم .. لقد تزوجت أختي من عشرين سنة وأعرف

تماما كيف تعيش ..

وقال عبد المعين مستجيبا لمحاولة مفيد :

— بل إنك تعرف عني ما لا أعرف ، والبركة في أختك التي لا ييل في

لسانها فولة .. المهم ..

— تعال إلى المهم .

— المهم أن صابر لن يدخل المدارس العالية .. أنا أحتاج إليه في

الأرض ، وأنا أريد وداد لصابر .

وامتقع وجه وداد من الفرح وطفقت السعادة على وجه ألفت ، وقال

مفيد بعد هنيهة صمت كان لا بد منها :

— ابني يحطّب ابنتي ، وأنت كبير عائلتنا ولك أن تتصرف فيها كيف

تشاء ..

— يعنى موافق ..

— كلامك يا عبد المعين أمر في كل بيتي ، فكيف إذا كان في موضوع
يسعدني كما يسعدك ؟ ..

وقال عبد المعين في لهجة مفعمة بالسعادة :

— قم يا صابر قبل يد حماك ..

وبفرائص مرتعدة من الفرح قام صابر يقبل يد خاله ، ثم قامت أمه تنهائى
فقبلت أجاجها وقبلت سلفتها ألقت ، ثم التفتت إلى و داد وقالت لها :

— أما أنت فتعالى أشبعك من القبل ..

ثم أطلقت زغرودة أعلنت بها إلى الجيران والأزمان ، خطبة و داد إلى

صابر ..

وفي صخب هذه العواطف التقت النظرات من و داد و صابر .. وقالت
العيون ما لم يقلة حديث وما لم تستطع القبلات المتبادلة بين الأهل أن تحمل
معانيه وما تنوء به زغاريد العالم كله بعظمته وأبعاده .

كان عبد المعين موفور الثروة ، وكان العثور على بيت أمرا يسيرا ، فما
أسرع ما اشترى الأب لابنه بيتا من طابقين بحى الحلمية ، وما أسرع
ما جهزت تنهائى بيت العرس .. فما مر شهران حتى كانت العروس في
حضن زوجها .

وبعد تسعة أشهر كان عبد المعين يحمل الحفيد الأول له من ابنه ..

— بسم الله ما شاء الله ! اللهم اجعل خلقه رضيا وحبب فيه خلقك ..
اسمعى يا بنتى يا و داد ! سأقول لك سرا لم أقله لأحد .. كنت أتمنى أن
يكون اسمى عبد الكريم أو عبد الغنى أو عبد الله .. الشاملة لكل صفاته

— ٨ —

سبحانه وتعالى ، ولم أكن أتمنى أن يكون اسمي عبد المعين ... سبحانه هو
العون ومنه العون ، ولكن العبد لا يحتاج إلى العون إلا حين يضيق به الأمر
وتحوم حوله الشدائد ، فلا تسميا الولد باسمي .

وتبتسم وداد وتقول :

— اسمك بركة يا عمي .

— سمياه عبد الغنى ، عسى الله أن يغنيه بالقناعة وهى الغنى الكامل ...
ويقول صابر :

— فاسمه إذن عبد الغنى على بركة الله .

* * *

ويعر عام وشهران ، وينجب صابر ووداد ابهما الثانى ويسميه جده
عبد الودود .

* * *

ولا ينتظر الجد حتى يرى حفيديه يسعيان فى مناحى الحياة ، بل يختاره
الله إلى جواره وعبد الودود فى الخامسة من عمره ..

وما هو إلا عام وثلاثة أشهر حتى تلحق به زوجته ، ويحس صابر بفراغ
هائل يشمله ويحيط بأيامه . كان شجرة خضراء غضة تعتمد فى صعودها
على الخبرة من أبيه وعلى الحنان من أمه . وقد كان أبوه عالما بأصول الزراعة
كل العلم ، وكان محبا للناس يدرى كل الدراية كيف يتألف قلوبهم .
وكان يعطى من ماله عند ضيق وعند فرج ، فيكسب حب الناس له
وإجلالهم وتقديرهم . وكان من هؤلاء القلة الذين وهب الله لهم تلك
الموهبة الفذة التى تجعلهم كبارا بين قومهم وإن لم تعل بهم السن .. هؤلاء

الناس الموهوبين ملكة حب الناس ، والقدرة على جعل الناس يحبونهم ويضعونهم بينهم في مكان الصدارة .

هؤلاء الناس الذين خلقهم الله كبارا في تصرفاتهم وفي أقوالهم وفي أعمالهم . لا يقربون الدنيا ، ويجعلون أيديهم هي العليا ، ويعطون فلا يخل في العطاء ، وكأنما هي هؤلاء الناس حق عندهم يردونه إلى أصحابه ..

وهكذا يجعلهم عشيرتهم رؤساء لهم وإن لم يطلبوا . وقد لازم صابر أباه عبد المعين حياته جميعا .. وعرف كيف يكون مثله .. وأكرمه الله بأن وهب له ما وهب لأبيه من الكبرياء بغير تكبر .. ومن الحب للناس من غير تعاضم .. يعطى ويلين للناس بالحديث والتراحم والأخوة .. إذا صفت الأخوة برئت من جشع أو طمع أو حقد أو تحاسد .

لم يكن صابر مقبلا على الزراعة إقبال أبيه ، ولكنه كان يعرف كيف يعامل الناس الذين يزرعون فأغدقت عليه الأرض . وقد ترك له أبوه مائة فدان خالصة من أجود أرض .. مع أموال سائلة تغنيه كل الغناء .

وفي السنوات التي عاشها الجد استطاع أن يرى حفيديه كليهما يبدآن التعليم في مدارس الروضة الحكومية بالقاهرة ، وكان يقسم وقته بين القاهرة وبين القرية وكذلك كان يفعل صابر . وكان الطفلان يصاحبان الأب والجد إلى البلدة كلما ذهابا إليها ، ولم تنقطع هذه العادة إلا حين بدأ تعليمهما في القاهرة . واحس عبد المعين في فرح أن عبد الغنى — ومثله عبد الودود — مقبلان كل الإقبال على القرية .. وأن كليهما دائم السؤال عما تنتجه الأرض وعما يساويه هذا الإنتاج من مال .. وكان عبد المعين في صفائه ورضى خلقه يسعد بهذا ، لعل الله أن يضع حب الأرض في

الحفيدين ما دام لم يستطع الابن أن يحب الزراعة .
 وحين مضى عبد المعين للقاء ربه كان قرير العين بهذه الخاطرة ، فأبناء
 الدنيا يرون الخير والشر من ثقب ضيق لا يتيح لهم أن يتعرفوا أين يكمن
 خيرهم الحق ، وأين يتربص بهم الشر ..
 كان صابر في زهرة الشباب حين صعد أبوه إلى جوار ربه ، ولم تستطع
 أسرته المحبة له الحانية عليه أن تعوضه عما فقد بموت أبيه .. وقد ازداد لوعة
 بفقدان أمه أيضا ..
 ولكن الحياة استطاعت أن تشغله بشواغلها ، ومالبت الأيام أن
 اجتذبت به إلى دفاعها .. ولكنه دائما كان يتحسس الجراح الغائر في حنايا
 نفسه بموت أبويه ..
 وكان الوقت شتاء .. وكانت أسرة صابر كلها في القرية فقد كان
 التلاميذ في إجازة نصف السنة .. كانت الرياح خارج البيت عاصفة ..
 واجتمعت الأسرة في حجرة واحدة من الطابق الأعلى من البيت الأنيق
 الذي كان عبد المعين قد بناه على أحدث طراز من فن ذلك الزمان .. كان
 البيت يحتوى على أربع غرف في الطابق الأعلى ، وعلى مثلها في الطابق
 الأول ..
 أما الطابق الأعلى فكان مخصصا للنوم ، وكان عبد الغنى وعبد الزودود
 ينامان في غرفة واحدة ، فقد كانا متحابين كل الحب ، متلازمين في كل
 لحظة من لحظات حياتهما لا يفرق بينهما إلا فضول الدراسة .. وقد ارادت
 وداد أن تخصص لكل منهما حجرة فأبى كلاهما ذلك ..
 وكانت هناك غرفة صابر ووداد .. وجعلت وداد غرفة مخصصة

للجلوس فيها وقضاء اليوم ، وخصصت الرابعة للطعام .
أما الطابق الأول فقد كان جميعه لاستقبال الضيوف .
كانت الأسرة جالسة في غرفة المعيشة وقد أشعلوا موقدا وراحوا
يسمرون بما يعين لهم ، وقد سرى الدفء في أوصالهم ..

وفجأة انقض عليهم صوت عالٍ الضجيج غلب على صوت الرياح ،
فملأهم الذعر وارتقى الطفلان في حضن أمهما .. وأدرك صابر أن بناء قد
تهدم ، فسارع إلى عبائه فأحكم لفها حول جسده واندفع كالسهم
خارجاً .. ودون أن تدري ما هي فاعلة ، تخلصت وداد من الطفلين
وحذرتهما من الخروج واندفعت إلى الخارج وراء زوجها ، وانكمش
الطفلان متلاصقين في كرسي واحد ..

ونزل صابر فوجد رهطاً من رجال العزبة قد سبقه إلى حظيرة المواشي
التي تحطمت أعراقها الخشبية من شدة الرياح وانهار سقفها فأصاب بقرة
من ثمان بقرات وجاموسة من ست جواميس .. وراح الرجال يخرجون
البهايم من الحظيرة ، وراح بعضهم يقول لصابر :

— الحمد لله قدر ولطف ..
وراح هو يردد دون وعى :

— الحمد لله .. الحمد لله .. ادفنوا البقرة والجاموسة وضعوا البهايم
الأخرى في حظائرهم حتى الصباح ..

والتفت بوحي مفاجئ من ضميره إلى حيث كانت وداد ، فرآها في
ملايس البيت واقفة على مبعدة من الرجال فسارع إليها ..
— لماذا جئت يا وداد ؟

— خفت عليك ..

— ارجعى .. أسرعى إلى البيت . لقد كنا فى حجرة دافئة وخرجت إلى هذا البرد القارس بلا معطف عليك .. ارجعى أنت .. الحمد لله .. لم يحدث شئ .. حاجة بسيطة ..

ورجعت وداد ..

وقال الرجال لصابر :

— لقد كنت تتوقع هذا ..

— نعم ، ولهذا بدأت أبنى الحظيرة الجديدة .. ولكننى كنت أتمنى أن تنتظر هذه حتى أتم بناء الحظيرة الأخرى ..

وقال أحد الرجال ..

— له فى ذلك حكم ..

— سبحانه .. كله بأمره .

ما أهون الخسارة التى منى بها صابر والتى انحصرت فى بهائمته . رجع إلى البيت راضيا .. فقد كان من ذلك النوع من الإنسان الذى يظل خائفا من المجهول ، حتى إذا وقعت خسارة أو ألم به مكروه حمد الله أنها أقل مما كان ينتظر .. لقد أصبح منذ وفاة أمه وأبيه من ذلك النوع الذى يتوقع من المصائب أفدحها ، ومن الكوارث أشدها عنفا .. حتى إذا وقعت حادثة كهذه التى أصابت بهيمته اعتبرها نعمة لا نقمة .. لأنه كان يتوقع من سير الأيام وتقلبها مالا طاقة له به .. فإذا انكشف هذا التوقع المروع إلى فقدان بهيمتين وسقف حظيرة فما أهون الأمر وما أضالؤه ! .. فقد كان مع هذا القلق من

الدنيا متفائلا يقدر أن الأيام إذا عاجت يوما في طريقها اعتدلت بعد ذلك
أياما طوالا ..

مسكين ذلك الإنسان ! .. يعيش من دنياه في هلع دائم .. يتربص
باللحظات عالما أنها تتربص به .. وعجيب ذلك الإنسان .. يحب الحياة
رغم ذلك .. ولو كان عاقلا لكفاه التهديد الدائم الذى يلح على مشاعره
حتى يكرهها ، ويتمنى أن ينتقل إلى الأمن السرمدى هناك مع الرفرف
الخضر والطمأنينة الخالدة .

* * *

أصبح الصباح فإذا وداد تعانى من حرارة شديدة يتوقد لها جسمها
جميعا ، ويتفصد لها جبينها بل كل جارحة فيها وتوشك أن تهذى من وقدة
الحمى .. ويسارع صابر إلى الطبيب يستدعيه .. إنه التهاب رئوى حاد .
ويبدأ العلاج وتزاد بها الحمى سعارا . ويأقنى طبيب .. وآخر .. ثم
آخر .. وتموت وداد .

(٢)

زوج يحب زوجته ولم يحب غيرها طوال حياته .. وهي قد فاضت عليه
بالحب خالصا صافيا لا يرنقه كدر ولا ينغضه حرج أو تصرف يضيق
به .. ووهبت له البنين ، وقضت عطف الحب بين الزوجين بالتقاء قلوبهما
حول ولديهما ..

وفجأة وقبل أن تسعى بهما الحياة في مدارجها .. وقبل أن تمسك بيد
طفليهما وهما في خطوات العمر الأولى .. تموت الزوجة فتتزل الطامة
بالشباب المؤمن نزول الصاعقة .. وتعصف به أنواء الخوف والذعر من
المستقبل . وتصبح نظراته إلى أولاده كلها ألم وحذر وحيرة وإشفاق ..
بعد أن كانت حبا وتعاطفا وحنينا مع قريهما إليه ، وتقانيا حتى لقد كان
يتمنى أن يصبح بعضا من كيانهما .. أو يصبحا بعضا من كيانه .. فكيانه
اليوم ممزق .. ونظراته إلى أبنائه فرق وخوف يطحن ، وحيرة مع المستقبل
في شأنهما ..

كان كل يوم يمر يقترب به من بؤرة الدوامة ، حتى لقد أوشك أن يفقد
اتزانه وقدرته على الحياة ..

وفي إلهامة ربانية يصحب ابنه إلى حج بيت الله ..

وفي لييك اللهم لييك ارتدت إليه نفسه وعاد إلى رشده وكأنما أجابته
أستار الكعبة أن وداد في ظلال وريقة في الملكوت الأعلى . وتغلب حبه لها

على جزعه لفقدها ، ووجد الأبناء في حضن أبيهما أمنا بعد فزع ،
وطمأنينه بعد حيرة وهلع .. وأصبح صابر منذ وقوفه أمام البيت إنسانا
آخر .. لقد رأى هناك أن الدنيا جميعا ما هي إلا طريق إلى الخلود عند
صاحب النفوس وخالقها وقابضها .. وهكذا عاد إلى مصر وقد امتلأت
نفسه بحب العبادة والتفاني في ذكر الله وفي الزكاة .. والعجيب من أمره أنه
أصبح محبا للزراعة وحريصا على إتقانها .. مرتبما أن الله حين يهب إنسانا
نعمة فإنه ينبغي على العبد أن يشكر ما أنعم به الله ، ولا يكون ذلك إلا
برعاية ما وهبه سبحانه لعبده .. وكان أول ما صنعه أن بنى مكان الحظيرة
التي تهدمت مسجدا غاية في الفخامة وأسماه مسجد الوداد ، وورّاح يوزع
نفسه بين أرضه وبنيه ، وكان يلجأ إلى حماه ألفت هائم أن ترعى ولديه
وتعمر بهما كلما اضطرت ظروف العمل أن يترك الطفلين . وقد صحبهما
من القرية نبوية البوهى التي توفي عنها زوجها الخفير صالح عوض وهى فى
ريعان الشباب ورفضت بعده أن تتزوج .. ولم تكن نبوية بذات بنين
أو بنات فأفرغت حنان الأمومة الربانى على عبد الغنى وعبد الودود ..
وتمشى الحياة وهى دائما تمشى لا يقف بها شئ ، وإنما تشرق شمس
الأيام من أجواف الظلمات ، ثم يسقط الليل على النهار فيفنيه . وكما يولد
فى كل مطلع شمس يوم جديد . فإنه ما يلبث أن يموت بخطوات الظلام إلى
الشمس .. وتصبح الحياة كلها حياة وفناء . ومن الحياة يأقى الفناء ، ومن
الفناء تختلج الحياة ، وتصبح هكذا سنة الحياة جميعا فى كل لحظة من لحظاتها
حياة وفناء ! ومع مولد طفل فى كل لحظة ، تموت حياة فى نفس اللحظة ،
وقد يكون الفقيد طفلا أو شابا أو عجوزا ولكنه يموت . وهل ميلاد طفل

إلا هدية يقدمها الغيب إلى الموت في موعده الموقوت .. لا يستقدمون عنه ولا يستأخرون .. أو ليس هو مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ؟ أو لا يصدق هذا على كل حياة في الأرض من إنسان أو نبات أو حيوان ؟ وتمضى الحياة مهما يكن الميت عزيزا على آله ، ومهما يكن أثيرا عندهم ، ومهما يكن في ريعان الفتوة وزهوة الشباب . تمضى الحياة ففى ألفاظ حروفها معنى الموت ، وإن كانت جملة الحروف تقول حياة . ولكن هل هناك حياة بغير موت ؟ أو هل هناك موت بغير حياة ؟ حتى يرث الله الأرض وما عليها فتكف الحياة عن لعبتها المتواصلة ويفرض الله الخلود ، ويحيى النفوس التى أنشأها هو أول مرة ، ويكون الحساب عند الحق الذى لا يضيع لديه أجر من أحسن عملا ، وتصبح حروف الحياة وقد فقدت معنى الفناء واكتسبت صفة الخلود . فتلك إذن هى الحياة الحق ، وما هذه التى نحياها إلا طريق إليها نقطعه شئنا أو أبينا . وعند نهايته ندرى أضلالا كان سعينا أم كان على هدى ؟ وننطوى فى ظل الجلالة العليا مخبتين آمنين . ولو لم نجد فى رحبته إلا الأمن وحده لكان فى ذلك حسبنا غاية الحسب .. وهل بعد الأمن نعيم ؟ ..

تمر الأيام بحلوها ومرها على الأسرة المبتورة ، ويصبح عبد الغنى فى الثانوية العامة ويصبح عبد الودود فى السنة السابقة لها ، فقد كان الولدان ينجحان فى كل عام فى غير تفوق ، وإنما هو نجاح متواضع هزيل .. ولكنه نجاح .

وصابر طوال هذه السنوات حريص على فرض الله . وحريص أيضا على القيام بواجباته فى الزراعة يكاد لا يزور إلا بيت خاله مفيد .

وكانت ألفت هائم تستقبله أحسن استقبال ، فقد كانت تقدر أنه أكرم ابنتها غاية الإكرام ، ولم يحبس عنها كرمه طول حياتها .. وكان كثيرا ما يجد في بيت ألفت أختها رحيمة .. وقد أنس إليها ووجد فيها سيدة طيبة النفس لا خبث فيها ولا دخل . تكثر من الحديث عن سجية موأية ، وتذكر خاصة شئونها وكأنها أمور عامة ينبغي أن تذاع على جميع الناس . حتى العلاقات الحميمة بينها وبين زوجها لا تخفى منها شيئا .. بل إنها حتى لا تخفى شيئا من فقر ابنتها هند وزوجها حامد .. وكانت تروى عن حامد لا تخفى من أسرار عمله شيئا ، وكان صابر يجد في رواياتها إيناسا ومتعة ..

— ترى الأني وحيد .. خلا إلى البيت بعد وداد ؟ ولكنني من ذكر الله في شعور عميق الفيض .. إنني أسبح في الملكوت الأعلى غيا عسن العالمين .. ما أحقر الإنسان مهما يرتفع بروحه إلى عليين في أسنى رحاب ، يظل بجسمه بل وبتفكيره أيضا عبد الأرض التي ما يزال يعيش عليها . يحتاج الإنسان في الأرض إلى الإنسان دائما .. ما دام يعيش حياة الأرض فهو في حاجة إلى الإنسان .. وإلا فما هذه السعادة التي تغمرني وأنا أستمع إلى رحيمة ؟ وما هذا الجذل الذي يغتريني .. وأنا أسمعها تروى عن ربو زوجها ، وعن فقرها مذ زواج ابنتها ، وعن خيبتها أيضا وكيف أنه لا يعرف شيئا في الدنيا إلا المدرسة والتلاميذ .

في يوم من بعد الظهيرة صحب طفليه إلى بيت جدتهما .. وكانا قد أصبحا شابين . وكانت جدتهما كثيرا ما تشكو إليه تقصيرهما في زيارتها ، فاضطر أن يشدد عليهما النكير ليصحباه إليها وإلى جدتهما مفيد ، وواجهته (الغفران)

- في البيت سحابة سوداء من الحزن والأسى يعرف ملامحها ، وإن كان لم يدر في يومه هذا سببها .
- وسأل وجاء الجواب ..
- حامد زوج هند .
- ماله ؟
- أصابته نوبة قلبية خطيرة .
- وأين هو الآن ؟
- في البيت . رفض الطبيب أن ينقله إلى المستشفى فأى حركة خطيرة عليه ..
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. كم عمره ؟
- في الخامسة والأربعين تقريبا ..
- أتريدان الذهاب إليه ؟
- أنا أريد أن أذهب ومفيد يرفض ..
- يا بنى الطبيب مانع الزيارة .. وأنا أعلم في هذه الحالات أن الزيارة خطيرة ، فما ذهابنا ؟
- يا أخى أذهب إلى أختى وابتها ولا أدخل إليه ... الطبيب مانع زيارة المريض لا زوجة المريض ولا حماته ..
- وحين نذهب أليس من الطبيعى أن يقدموا لنا قهوة وإكرامية ، ونشغل البيت جميعا عن المريض الذى يحتاج إلى كل عناية ؟
- يا مفيد الله يهديك . ليس من المحتم أن تقدم لى أختى أو ابنة أختى إكرامية .

وأخيرا تكلم صابر ..

— أنت محق يا عمى ، ولكن من وجهة نظر أخرى أرى ألا نتركهم وحدهم ، وقد يحتاج الأمر إلى من يعينهم في هذه الفترة الحرجة .
وقالت ألفت :

— قل له يا بنى :

وقال مفيد :

— أترى ذلك يا صابر ؟

— أعتقد ذلك .

— هل معك سيارتك ؟

— نعم .. هيا بنا .

والتفت إلى ولديه وطلب إليهما أن يعودا إلى البيت ..
وفي بيت حامد رأى صابر مصدر الوجوم الحزين الذى لقيه في بيت حميه .. مسكينة هند ! الهلع والخيرة والخوف والأمل والاضطراب والجهد المستमित للسيطرة على نفسها ، حتى تظل متماسكة لتراعسى المريض وترعى شأنه . ورأى محياها يكسوه ذلك الشعور بالوحدة القاتلة . أعلم أنها لا ولد لديها ولا ابنة .. ولكن لها أبوها داود افندى الدماوى .. ولها أمها. هيئات ! الأم مهما تكن خفيفة الظل كثيرة الحديث إلا أن وجودها عند الشدائد يصبح كالعدم . والأب مشغول نهازه بالمدرسة التى يعمل بها مدرسا ، وليله بتلاميذ الدروس الخصوصية الذين يصيب منهم مالا قليلا يعينه على الحياة ، وعلى شراء أدوية الربو الذى أصيب به منذ سنوات .

— ٢٠ —

لا عجب إذن أن تصبح هند وحيدة .

وكفريق لقف طوق النجاة !

— الحمد لله أنكم جئتم .. هل سيارتك معك يا صابر ؟

— نعم .

— هذا دواء كتبه الدكتور لحامد ولم نجد له أثرا في الصيدليات

القرية .

— لحظات وأكون عندك بالدواء . كيف حاله ؟

— ربنا يستر .

وراح صابر يمر بالصيدليات في إصرار وإخلاص ولم يجد الدواء إلا بعد قرابة ساعتين . ولم يدر لماذا خامره هذا الشعور بالسعادة حين وجده .. إن صلته بحامد صلة غير حميمة ، وربما تكون لقاءاته بهند كثيرة حين يلقاها في بيت حمدي . ولكنه كان كلما لقيها يحس أنها تحمل ألما دفينا عميقا في الأغوار البعيدة من نفسها .. ترى ما سر هذا الألم ؟ .. مسكينة هند إنها لا تجد أحدا تفضي له بأحزانها فأمرها مشغولة بالحديث عن الاستماع وأبوها مشغول بالحياة عن الحياة .. والابنة تطوى نفسها على هذا الألم لا يدرى مأتاه وإن كان واثقا منه ..

رقيقة الملامح هي جميلة غاية الجمال لو أن الإشراف تلالاً في ثأمات وجهها لأصبحت قمة من الحسن لا تدنو إليها قمة .. يعرفها منذ كانت طفلة ولكنها لم تكن تزور خالتها كثيرا فهي أكبر من وداد .. وكانت قليلة الزيارة بعد الزواج . وحين ماتت زوجته أصبحت رؤيته لها بالصدفة ولكنه لسبب لا يدرى كان يشعر نحوها بنوع من العاطفة يعجز عن وصفه .

ليس حبا .. فهو لا يتصور أن يحب سيدة متزوجة .. والعاطفة عنده مهما تكن جياشة إلا أنها خاضعة للعقل بالسليقة يقيمها قبل أن تشتت ويردها دون التهادى قبل أن يصل الأمر بها إلى الثورة ..

وصل صابر بالدواء .. فطالعه ذلك الصراخ الذى يعلن به نساء مصر عن الموت .. وسارع بالصعود ووضع الدواء الذى لم يصبح ذا فائدة على منضدة بجانب الباب .. وضعه فى خفية وعلى استحياء وكأنه يقوم بعمل مخجل . وذهب إلى خاله مفيد ..

— خالى اذهب انت إلى البيت واترك الأمر لى ..

وكأنما كان مفيد ينتظر إشارة تبعده عن هذا الكرب العظيم .. وتولى صابر الأمر وظل ملازما لهند حتى تمت كل الطقوس التى تعود الناس أن يقوموا بها بعد الوفاة . وبعد أن مرت الأيام الثلاثة التى تتقاطر فيها السيدات إلى بيت العزاء تحرى أن ينفرد بهند .

— ماذا أنت صانعة ؟ ..

— لا شيء .. أحسب أننى سأعود إلى بيت أبى ..

— طبعا ولكنك هناك كيف ستعيشين ؟ ..

— على أبى أن يقوم بشأنى ..

— أعلم ذاك أيضا فهذا واجبه ولكن ..

— أعرف كل ما وراء لكن .

— حامد لم يترك لك شيئا طبعا ..

— من أين ؟ أنت تعلم أنه كان مدرسا فى أول حياته ، وكان المرتب

لا يكاد يفنى بمطالبتنا ..

— اسمعى يا هند ! ربما لم تتح لنا الأيام أن نلتقى كثيرا ، ولكننى أعرف
عنك من والدتك كل شيء .. ولك أن تتأكدى أنك ستجدين فى بيت
أبيك كل ما تحتاجين إليه ..

— كيف عرفت ذاك ؟ ..

— أنت ابنة خالة وداد .. وفى مكان الخالة لأولادى .. وتأكدى أننى
لم أكن واقفا بما أقوله لما قلته ..

— أكاد أفهم ولكن لا أريد أن أفهم : لأننى إذا فهمت ربما تأخذنى
العزة ، وربما فعلت ما لا ينبغي لى أن أفعل ..

— إذن يحسن بك ألا تفهمى .. كل ما عليك أن تطمئنى :

وذهب من فوره إلى بيت داود الدمراوى . وكما توقع لم يجد الأب هناك
وجود الأم .. وعاجلته رحيمة ..

— هل سيارتك معك ؟ أريد أن أذهب لهند وآتى بها ..

— ستذهبين وستأتين بها ، فقط انتظري قليلا لتحدث .. فلى أيام لم
أحدثك .

— أرايت يا صابر ما أضابنا .. مصيبة كبيرة يا بنى يا صابر ..

البت ما زالت صغيرة .. وكالقمر .. تصبح أرمل وهى فى هذه
السن ! وماذا ستفعل .. وكيف ؟ ..

وقاطعها صابر فى حزم :

— يا خالتى رحيمة اسكتى ..

وفوجئت رحيمة يرتسم على محياها وجوم ذاهل ، وأكمل هو :

— للمرة الأولى وربما الأخيرة أريدك أن تسمعى بدلا من أن تتكلمى .. وللمرة الأولى وربما الأخيرة سأتكلم أنا .. وظلت على ذهولها وأكمل هو منتظرا فرصة صمتها :

— عم داود ليس صغيرا فى السن والمرض يجهد ، وما يكسبه من الدروس الخصوصية لا يكاد يفى بثمن أدويته .. وأنا أعلم أنكم فى ضائقة وأن وجود هند معكم سيزيد هذه الضائقة إحكاما .. أمسكى هذا المبلغ .. سأقدم إليك كل شهر مثله ، بشرط واحد ألا تعرف خالتي ألفت شيئا ، ولا تعرف هند شيئا ، ولا يعرف عم داود أيضا شيئا .. وإذا احتجت إلى أكثر منه أثناء الشهر ما عليك إلا أن تطلبى منى .. فأنا أعرف أنك تعتبرينى مثل ابنك ، وسيظل هذا الأمر سرا بيننا إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

وازداد ذهول رحيمة وحاولت أن تفتح فمها ، ولكنه عاجلها :
— ولا كلمة ..

واخيرا قالت بلسان غير ثابت وبدموع جارية :
— يا بنى لأول مرة لا أجد شيئا أقوله .. إلا كلمة واحدة سأقولها وأصمت :

وسع الله عليك وأكرمك فى نفسك وفى أبنائك !..

— هيا بنا .

— هيا ..

(٣)

فى ذكاء شديد كان صابر يحرص غاية الحرص على أن يترك عبد الغنى
وعبد الودود فى القرية ويذهب هو إلى القاهرة ، ويترك لهما حرية
التصرف وهو يرقبهما من بعيد يجتز ما يجتز من تصرفاتهما ويرفض ما يرفض
دون أن يُشعر واحدا منهما أنه يرفض تصرفه .. بل هو يعالج الأمر فى كياسة
وتلطف حتى لا يخرج صاحب الرأى أمام أهل البلدة ..

وفى يوم من هذه الأيام التى انفرد فيها الشبان الصغيران بالأمر لغياب
والدهما ، قصد إلى عبد الغنى ناظر الزراعة هنداوى فراج ومعه سعدان
الدهوشى مقاول تطهير المصارف وقال هنداوى :

— هل ترك البك معك حق سعدان يا عبد الغنى بك ؟

— نعم ..

— لقد انتهى من تطهير المصارف ..

— لقد مررت عليها ورأيته ؟ ..

— مصرفا مصرفا ..

— وهل تظن أنى أصدقك ؟ ..

— إن لم أكن محل ثقة ما استخدمنى جدك ، وما أبقى على أبوك ..

— نعم .. نعم .. أعرف هذا الموال .. ولكننى غير أبى وجدى ..

— بالتأكيد يا عبد الغنى بك ، أنت غير أبىك وجدك ..

وتدخل عبد الودود فى الحديث محتدا :

— ٢٥ —

— ماذا تقصد بهذا يا عم هنداوى ؟ ..
— لم يعد هناك داع لكلمة عم هذه .. فإنك أنت وعبد الغنى بك
نسيتما أيام كنت أحملكما على كتفى ونسرح فى الغيط ، ونشوى الذرة
وتأكلانه ..

— وهل معنى هذا أن تأكلنا ؟ ..
— أنا يا عبد الودود آكلكم !؟
— عبد الودود هكذا بلا حياء ..
— لقد كبر الرجل يا عبد الودود ولم يعد يفهم ..
— جاد خيرك يا عبد الغنى أنت وأخوك .. سلام عليكم ..
وانتر عبد الغنى غاضبا .
— سلام عليكم إلى أين ؟
— إلى بيتى ولكم أب أرد عليه .. إن كان هذا يعجبه يكون لنا كلام
آخر .

— ألا يعجبك أنت ؟ ..
— لا يعجبنى .. ولا يعجب أحدا يعرف معنى احترام الصغير
للكبير .. سلام عليكم ..
— وفلوس سعدان ؟
— سعدان عندك والمصارف عندك ، افعل ما تريد ..
وصاح سعدان :
— انتظر يا عم هنداوى خذنى معك .. إن الله الغنى عن الفلوس إن
كنت سآخذها من البهوات .. خذنى معك ..

- وخرج الاثنان وقال عبد الغنى :
- أرايت أن أبى يدير الأرض بضعف شديد .. وهذا الرجل و الذين يساعدونه يأكلون أبى أكلا ..
- إنه ليس له عمل إلا عبادة الله .. أما الأرض فهو لا يهتم بها ويتركها لهؤلاء اللصوص ..
- لو تركها لنا لجعلنا دخلنا من الأرض عشرة أضعاف إنتاجها الآن ..
- على كل حال أين ستذهب الأرض إنها لنا آخر الأمر ..
- مت يا حمار .. إن أبى ما زال صغيرا .. هل سننتظر حتى تصبح الأرض ملكنا ؟
- ويملك ماذا تريد أن تفعل ..
- لا .. ليس إلى هذا الحد .. وإنما علينا أن نراقب نحن الأرض ونحاول إبعاد اللصوص عنها ، ونطلب إلى أبينا أن يشغل هو بالعبادة والتفرغ للفروض والسنن ..
- وهل يقبل ؟
- نسايسه .
- وإذا رفض ؟
- نسكت بعض الوقت ثم نعاود الكرة ..

(٤)

مر أكثر من عام على موت حامد ، والمرتب الذى فرضه صابر على نفسه لم ينقطع يوما عن يد رحمة .. وكان صابر يتحرى أن يذهب إلى بيت داود أفندى فى الأوقات التى يكون واثقا فيها أنه سيجد داود خارج المنزل ، وأن حماته ليست فى زيارة لأختها ..

وكان يدخل فتستقبله رحمة ومعها هند .. وفى ذكاء متفق عليه تقوم هند لتعد له القهوة ويسلم هو الظرف إلى رحمة .. وحين تعود هند بالقهوة يبدأ الحديث وأغلبه طبعاً للست رحمة ولكن الحديث الطويل الطريف الضاحك لم يستطع أن يمنع نظرات أن تلتقى خلجات وجهين وابتسامات شفاه مختلسة أن تتشابك فى حوار عالمى طويل ، ربما كان جديداً على صابر وربما كان جديداً على هند ولكنه باليقين والقطع ليس جديداً على البشرية منذ أكل آدم تفاحة حواء .. وإن يكن صابر قد تزوج وداود بعد حب ، إلا أنه كان يصارحها بحبه ، وما كان فى حاجة أن يختلس النظرة أو الخلجة أو الابتسامة ..

وإن تكن هند قد تزوجت من حامد .. فإنها لم تكن تدري ما الحب معه ، فقد تزوجها لأنه تعرف إلى أبيها فى المدرسة ، وعرف أن لديه ابنة جميلة من الزملاء ..

وكان صابر يحرص ألا يجعل زيارته مرة كل شهر ، مدعياً أنه ينبغي أن يزور فى

الشهر مرات حتى لا تعرف هند أنه يقدم إليها معونة .. ويحاول صابر في جهد جهيد أن يخفى عن نفسه أنه يحب . ويحاول أن يرفض هذا الحب مدعياً أنه ينبغي ألا يتزوج بعد أن فقد زوجته وهواه .. ويحاول أن يقنع نفسه بأن هند هي أيضاً ربما ترفض الزواج بعد فقد زوجها .

وتناع الحجاج التي يسوقها لنفسه والتي يتوهمها هند .. ويفرض الحب نفسه وتفرض البشرية نفسها .. فعندها لا فارق بين عابد وغير عابد ، فكلهم عند مطالبها بشر ، وكلهم .. وكلهم .. عليهم أن يخضعوا لبشريتهم ولهم أن يختاروا طريق الخضوع .. منهم من يختاره في خفاء عن عيون الناس وفي معصية لشرائع السماء ، ومنهم من يختاره في عريضة بوهيمية .. ومنهم من يختاره بالطريق المشروع في نزاهة وشرف ووضوح ..

ذهب صابر في ذلك اليوم إلى بيت داود .. واستقبلته رحيمة وعلى ملاحظتها معالج جد غريبة على وجهها .. واستقبلته هند وفي محياها وجوم لم يره على محياها منذ شهر ..

وذهبت هند إلى القهوة المزعومة ، وسارعت رحيمة تقول ..

— يا سى صابر .. هند جاءها عريس ..

ونزل عليه الخبر في مفاجأة وعجب ، وفكر قليلاً ثم ما لبثت نفسه أن عادت إلى رشدها . وما العجب أن أفكارك وتخييلاتك لا تستطيع أن تفرض نفسها على الناس ، وما دمت أنت لم تتقدم فأى عجيبة أن يتقدم غيرك ، وما دامت رحيمه تنهى إليه خبر العريس وما دامت هند واجمة .. — إنى أخطب إليك هند وأبلغى داود أفندى ، ومستعد

— ٢٩ —

للزواج فوراً ..

وانبسط ما كان معقدا على وجه رحيمة .

— هل أنت جاد ؟

— وهل في هذا هزل ؟

— وأختي .. أتظنها توافق ؟ ..

— من المؤكد أنها ستوافق .. فأى أم لولدى خير من هند ؟ .

— نعم .. ستوافق على بركة الله .

ودخلت هند بالقهوة وعاجلتها أمها :

— ارجعى بالقهوة وهات الشربات لعريسك ..

وابتسمت هند وأطرقت في خجل لا صنعة فيه ، وعادت لتأتى

بالشربات ..

الآن سار الأمر في طريقه الصحيح ..

(٥)

قال لو لديه :

— إني سأتزوج .

وقال عبد الغنى :

— ألم تكبر على الزواج ؟ ..

— من تقصد بالكبر .. أتقصدنى أم تقصد نفسك وأخاك ؟

— أقصد الجميع .

— أما عنى فكثيرون تزوجوا لأول مرة وهم فى مثل سننى . أما عنكما

فلو كنت تزوجت وأنتما صغيران لقل لكما أنى لكما بامرأة أب

تعذبكما ... فإذا انتظرت حتى تصبحا شابين يستطيع كل منكما أن يقوم

بشأن نفسه قلت إنكما كبيرتما .. وقال عبد الودود :

— والخلاصة ؟ ..

— الخلاصة أننى سأتزوج وضميرى مستريح .. والخلاصة يا قليل

الأدب أن على الإنسان فى هذه الحياة أن يرضى ربه ويرضى ضميره

ويتوكل على الله . ومن يرض بعد ذلك فليرض ، ومن يغضب

فليغضب .. اغربا عن وجهى .

وفى استخذاء خرج الابنان حتى إذا أمنا العيون والآذان قال عبد

الغنى :

— ٣١ —

— فليتزوج ألف مرة المهم ألا يأتى لنا بأبناء يشاركوننا فى الأرض
والثروة .

وقال عبد الودود :

— ما دام سيتزوج ، فالطبيعى أن يأتى بأولاد .

— طيب فليأت هو بهم وسترى ماذا أنا فاعل ..

— وماذا يمكن أن تفعل ؟

— كل شىء بأوانه .

— ألا أعرف ؟

— وهل سيعرف إلا أنت .. سترى ..

تزوج صابر بهند .. وحين دخل بها طالعته مفاجأة أعجب لها كل
العجب .

— كيف ذاك ؟

— وماذا كان يمكن أن أفعل ؟ ..

— لقد عشت معه ست سنوات .

— هذا حظى ...

— لماذا لم تقولى لأملك ؟

— أمى لا وقت عندها أن تسمع شيئا ، وخاصة إذا كانت الأخبار التى

ستسمعها غير سعيدة ..

— أتعنين أنه لم يقترب منك ..

— رحمة الله عليه، قبلنى يوم الدخلة وأفضى إلى بالحقيقة ..

— ٣٢ —

- ولماذا قبلت ؟
- خجلت .
- أى سنوات عشتها !!
- قلت فى نفسى هذا حظى المقسوم ، وعلى أن أحتمل ..
- وهو كيف قبل ؟
- كان يريد أن يبدو أمام الناس رجلا ..
- على حسابك ؟
- المهم أنه أمام الناس زوج .
- ومن أجل هذا يفرض عليك رهينة ، الله يعلم إلى متى كانت ستظل مفروضة عليك .
- رحمه الله !
- ولكنك حزنت لأجله .. نعم حزنت .. أنا أعرف الحزن حين أراه ..
- عشرة لآتهون .. ومات صغيرا ..
- ولكنه كان قد فرض عليك الظلم .
- كان يحسن معاملتى ..
- هل بشر هذا الذى أراه فيك .. أم نوع من الملائكية لا تعرفه البشرية ..
- بل إنسانة .
- فى أعلى مراتب الإنسانية .
- لا تبالغ ..

— ٣٣ —

- بل إني مقصر في الوصف .
 - أكنت تعرفين أنه مريض ؟
 - لقد مرض ومات في ثمان وأربعين ساعة ، كان قبلها في أتم صحة وعافية .. بل إنني لا أذكر أنه مرض مرضا يستحق أن يطلب من أجله إجازة طوال سنوات زواجنا ..
 - كم تعذبت !
 - وحدي ولا يدرى أحد .
 - كنت أرى في عينيك أسي ووحدة وألما دفيناً ..
 - ولكن أسي لم تر من ذلك شيئا .
 - أملك هذه شخصية فريدة في نوعها .
 - لو رأيت كم كانت تلح على أن أذهب إلى الأطباء ليعرفوا السبب في عدم إنجابي لدهشت ..
 - وماذا كنت تقولين لها ؟ ..
 - أقول لها الله هو الرازق اتركها على الله . وطبعاً لم أذهب إلى طبيب ..
 - وهي ألم يدهشها إصرارك على الرفض ؟ ..
 - كانت تفرغ دهشتها بأن تروى أمري للناس وتجعل من حكايتي موضوع حديثها .
 - نعم أنت محقة .. طالما سمعته منها ..
 - وكانت تأتي إلى بالوصفات والأحجية ..
 - وتعتقد أنها قامت بواجبها ..
- (الغفران)

— ٣٤ —

- هكذا هي ..
- أنت عظيمة يا هند .
- لعل الله أن يكرمني بك .
- أعدك أنك لن ترى مني إلا ما يرضيك ..
- وأنا أعرف صدقك عندما تعد .. بل أنت صادق في كل ما تقول أو تفعل ..
- إن الصدق عبء ثقيل .. أعانني الله عليه !
- سيعينك إن شاء الله .
- الآن عرفت أنني أثير عند ربي .. فإن الإنسان يكون في قمة السعادة إذا وهبه الله زوجة صالحة .. وها هو ذا سبحانه يهب لي زوجتين صالحتين .
- رحم الله وداد !.. كانت صالحة .
- وأنت صالحة وصابرة ، وفيك ملائكية لا أعرف أن أحدا من النساء تقاربك فيها .
- أنت تبالغ ..
- أكرمك الله كما أكرمت زوجك الأول وكما سترت عليه ..
- سيكرمني بك إن شاء الله .

* * *

(٦)

التحق عبد الغنى بكلية الزراعة ولحق به عبد الودود في العام التالي . وبعد أن كان سيرهما في الدراسة من ذلك النوع المتوسط الذى لا نبوغ فيه ولا نكوص ، فكلاهما لم يسقط ولكن لنجاحهما دائما كان نجاحا غير مرموق .. إذا بهما كلامهما ينبغان في الزراعة نبوغا يدعو إلى دهشة من يراقبهما .. وأدرك الأب من هذا النبوغ المفاجئ ، ومن شواهد أخرى كثيرة أنهما يتعجلان التحكم في الأرض تحكما كاملا . وإن كان كل الآباء يسعدون بأن يصبح أبناؤهم نبغاء .. فإن شيئا كالغصة كان يجمع الفرح في نفس صابر .. لما أحب إليه أن تكون الأرض عزيزة عند ابنه .. ولكن ما أشد كراهيته أن تصبح الأرض هي العزيز الوحيد عند ولديه ، فقد كان المال عنده وسيلة ليعيش كريما على نفسه وعلى أسرته وعلى الناس . ولم يكن المال عنده في يوم من الأيام غاية في ذاته ..

وباقتراب صابر من رحاب الله أصبح ذا نفس شفافة ترى مالا يراه سائر الناس ، وبنوع من الروحانية التي لا يعرف البشر ما تأها كان يحس بمواطن الخطر المتخفى وراء أستار الطمأنينة والبشريات ..

كان الأخوان لا يفترقان إلا إذا ذهب كل منهما إلى محاضرتة ، ثم هما متلازمان في الكلية وفي البيت وفي القرية .

— ٣٦ —

بعد شهرين من زواج صابر بهند بدأت أعراض الحمل .. وجاء الطفل في موعده المقدور مشرقاً إشراقاً لم يعدها صابر في ولديه ..

— ماذا سنسميه ؟

— كنت أرجو أن يكون لابنّي أخت ، أستحضر أسماء البنات لا البنين ..

— أغضبت أن جئت لك بولد ثالث ؟ ..

— أیغضب أحد من مجيء ولد ؟ فكيف بمؤمن بالله إيماني .. وكيف إذا كان الغلام بهذا الإشراق ؟ .. إن النور يهر من ينظر إلى مهده ..
— فماذا نسميه ؟ ..

— أرى أنك تضميرين له اسما ..

— كان يدرس لي في المدرسة شيخ طاهر وضئ السميت والضمير كنت أشعر بالسعادة كلما رأيته ، وكنت أحرص دائماً أن أقبل يده في كل صباح .. وكان أملی أن يهب الله لي غلاماً وأسميه باسمه ..

— صديق إذن ؟

— أتعرفه ؟

— طالما ذكرته لي ونحن نسمر .. هل نسيت ؟

— كانت أحاديث عابرة .

— اسمعي ! لقد كنت أنوى أن أسميه صديق ، ولكنني أردتك أنت أن تسميه .. فقد خشيت في نفسي أن يكون حبك للشيخ من قبيل التبرك والإعجاب فقط ، وليس لدرجة أن تسمى ابنك الأول على اسمه ..
— هذا أملی .

— ٣٧ —

— وليكن صديقا على بركة الله ..

* * *

وقال عبد الغنى :

— إذن فقد أنجب الشيخ الزاهد .

وقال عبد الودود :

— أليس من الطبيعي أن تلد الزوجة لزوجها ؟ ..

— أنت غبى .

— أى غباء فى أن يتزوج اثنان فتلد الزوجة .. أو لم تكن تعلم أنها

ستنجب منذ عرفت أنها حامل ؟ ..

— كنت أعرف طبعاً ، وكم صليت ورجوت الله ألا تكمل حملها ..

— وأى سرفيك يجعل دعاءك عند الله مجاباً ؟

— وها هو ذا لم يستجب ، ولكنك أيضاً غبى ما تزال ..

— أنا موافق ، فقط أخبرنى فيم غبانى ؟

— ألا تدري أن هذا الولد سيجعل ميراثنا ينقص بمقدار الثلث ، غير

نصيب الثمن الذى ستحظى به هند هائم إذا عاشت بعد أبى ..

— أمن أجل هذا ترانى غبياً ؟ ..

— طبعاً .

— ولكن النتيجة التى وصلت إليها لا تحتاج إلى أى ذكاء ، فما دام قد

أنجب فلا بد أن يرث ابنه ..

— هذا إذا عاش الابن ..

وفزع عبد الودود فزعاً شديداً .

— ماذا تقول ؟

— ألم تسمع ؟

— فقط أتعجب .

— الموت حق .

— على كل البشر .. ماذا الذى جعلك واثقا أننا سنعيش بعد موت

أيننا ؟ ..

— سنة الحياة ..

— وهل سارت الحياة دائما على هذه السنة ؟ ..

— الاستثناء لا يقاس عليه ..

— ألم تقدر أننا قد نرث ثم لا يكون لنا بنين أو بنات ، فيرث صديق كل ما نملك .. إنه أصغر منا بسنوات طويلة .. إنه ولد ونحن فى الجامعة فمن طبيعة سنة الحياة أن نموت قبله ..

— من الذى يشكل الحياة ؟

— الميلاد والموت لا يشكلهما إلا الله .

— أما الميلاد فنعمة .. أما الموت ..

— أتريد أن تشارك الله فى ملكوته ؟ ..

— أدافع عن حقى .

— ولكنه حق صديق أيضا .

— من قال له يأتى ونحن فى هذه السن .

— إذن لو كنت تكبرنا بعشر سنوات لقتلتنى ..

— ٣٩ —

— الأمر مختلف .. لقد تعودت وجودك ، واستقر في ذهني أن ليس
لأبينا وارث إلا أنا وأنت ..
— ولكن الأمر تغير .
— نغيره مرة أخرى .
— كيف ؟
— ستري ..

* * *

حرص صابر أن يبقى صديق في غرفة نومه منذ مولده .. وأمر هند
أمرًا صارما ألا تفارقه لحظة .. ألم أقل لك إنه قريب من الساحة
الربانية ؟ ..

(٧)

بلغ صديق الخامسة من عمره، وكان قريبا كل القرب من أبيه يكاد لا يتركه لحظة من حياته . بل إنه كان يصحبه كلما خرج لزيارة أصدقائه .. ودون أن يدري جعل صديق لا يعرف ساحة اللعب التي يهفو إليها الأطفال . فهو أغلب وقته مع أصدقاء أبيه في مجالس الكبار . ولكنه طفل .. وللطفل رغبته العارمة في اللهو والمراح .. وأدركت هند ما يصبو إليه طفلها ..

— يا صابر ألا تترك صديق يلعب مع الأطفال ..

— هل شكاً إليك ؟

— هو لا يحتاج إلى الشكوى .

— سيدخل المدرسة هذا العام .

— وهذا ألعن .. ينتقل من الجلوس إلى الكبار ليجلس إلى الدرس

والمدرس ..

— افعل ما شئت ..

— اتركه لي قليلا .

— ما ترين .

وحاولت هند أن تنشئ له علاقات مع أطفال من سنه .. وبدأ صديق

يعرف لمو الطفولة .. ولكن لم يكد .. فما أسرع ما لقفته المدرسة ..

وبدا ينتظم فيها ...

ويشاء بارئ النفوس أن تكون صحبة صابر لصديق نعمة له أى نعمة .. فقد وجد صديق نفسه فى المدرسة لمتقدما يستمتع بالدرس الذى يضيق به جميع الأطفال ، ووجد نفسه فى فناء المدرسة محبوبا من إخوان ملعبه يجدون فيه وقارا لا يتسنى لأحد منهم . ودون أن يشعر هو أو يشعر زملاؤه أصبح زعيم الأطفال وقبلتهم .. كلمته بينهم مسموعة مستجابة .. فلا خلاف ينشب إلا قضى عليه صديق . وزاده بينهم مكانة تفوقه المذهل فى الدراسة ، وكان مجرد سماعه للدرس يجعله يحفظه وكأنه قرأه عشرات المرات .

ومرت سنة دراسة وانتقل بيت صابر إلى القرية .. وما إن يستقر بهم المقام حتى يقول عبد الغنى لأبيه وهم جلوس إلى مائدة الغداء .

— بابا .. نريد أن نذهب إلى المصيف ..

ويصمت صابر قليلا ويقلب الأمر فى ذهنه ..

— ما المانع ؟ .. فكره وجيبة .

وتقول هند :

— إى والله لماذا لا ؟

ويقول صابر :

— أتفكر فى مصيف خاص يا باشمهندس ؟ ..

— باشمهندس مرة واحدة !

— أ لم تتخرج فى الزراعة وأصبح لقبك المهندس الزراعى .

— والله أنا أفكر فى الإسكندرية .. ما رأيك أنت يا باشمهندس عبد

الودود ؟

— ٤٢ —

ويضحك عبد الودود وينظر لأبيه ..

— أنا أوافق على أى مصيف .

ويقول صابر :

— مارأيكم فى رأس البر ؟

ويقول عبد الغنى ..

— لماذا اخترت رأس البر ؟

ويقول صابر :

— مصيف هادئ ، ولا أخشى على أحييكم صديق ..

* * *

وفى رأس البر يحاول عبد الغنى أن ينفرد بصديق فى البحر فتضيق عليه المسالك .. ويقطع أبوه عليه كل تدبير دون قصد فهو معهم دائما ، وهو حريص كل الحرص أن يكون صديق فى ذراعه ... وقد عن له منذ اللحظة الأولى لتزولهم إلى البحر أن يعلمه العوم .. ولكن عبد الغنى يقول له :
— يا بابا هذا العوم يصلح لثرعة البلد ولا يصلح للبحر الأبيض المتوسط ..

ويضحك صابر وهو يقول :

— أليس كله عوم يا باشمهندس ؟

— لا ، هناك العوم الذى يجعل الإنسان طافيا ، وهناك العوم المبني على قواعد وأصول .

— أتعرف أنت هذا العوم ؟ ..

— تعلمته فى الكلية على يد مدرين .

— أتريد أنت أن تعلم أخاك ..

— طبعا ، إذا علمته أنا سيكون هناك فارق كبير بين تعليمي وتعليم سعادتك ، مع احترامي الشديد ..

— ولكنني أرفض أن أشغلك بهذا ، وأنت قادم هنا للمتعة .

— إنها متعة لي إنها متعة لي أن أعلم أخى ..

— لا أظن . وعلى كل حال سأفكر في الأمر ..

وكان صابر وهند يصحبان صديق إلى الشاطئ كل يوم ، بعد أن يتناولوا الغداء ويصيبوا نومة القيلولة .. وكان عبد الغنى وعبد الودود يقصدان إلى الجانب الآخر من رأس البر على النيل حيث الفنادق ذات الجلسات المرحية ... حيث يجمع النيل على ضفته الشباب والشيوخ .. أما الشيوخ فيلعبون الترد أو الضممه ، أو يسمرون مكثفين من الجمال بالنظر . أما الشباب فيمرح ما شاء له المرح في الأضواء المتألقة من الكهرباء ، ومن الهواء ومن الهوى ، ومن شلالات السنين الخضر التي تريد أن تستوعب الحياة كلها في لحظة من عمر الزمن .

وبعد ذلك الحديث عن العوم كان صابر يجلس على الشاطئ مع صديق وهند ، وكانت هند تشعر أن صديق مظلوم معهما في جلستهما هذه وكانت تفكر . ولم يطل بها التفكير فقد رأت أطفالا في مثل عمره يلعبون الكرة ، وفكرت كيف تستطيع أن تجعله يشاركهم اللعب دون أن تفرضه عليهم فرضا .

استأذنت زوجها ..

— صابر .. سأغيب عنك بعض دقائق ..

— إلى أين ؟

— ستعرف .

— مفاجأة ؟

— ربما .

— أمرك ..

وانصرفت ، وخلا صابر بنفسه لا يجد ما يقوله لصديق كما لم يجد صديق ما يقوله لأبيه .. ودون قصد وجد صابر نفسه يفكر فيما قاله عبد الغنى عن تعليم العوم ..

ليس من حقى أن أحرم عبد الغنى من متعة العوم مع أخيه وصحبه لأجعله يعلم أخاه العوم .. قد يطيق هذا يوما أو يومين ثم يضيق بالأمر . ولكن عبد الغنى محق في أن صديق يجب أن يتعلم العوم على أسسه الصحيحة وليس بطريقة عوم الترع التى تعلمت أنا بها .. هذا البحار لا بد أنه يتقن العوم ..

— يا حاج ..

وجاء البحار حارس الشاطئ .

— تحت أمرك يا بك ؟

— ما اسمك ؟

— مهدى الحوت .

— حوت مرة واحدة ؟

— أسماء يا بك ، عائلتنا اسمها عائلة الحوت من دمياط من قبل أن يأتى

إليها نابليون ..

— ٤٥ —

- يا مرحبا يا عم مهدي .
- مرحبا بك يا سعادة البك .. أظن سعادتك أول مرة تشرفنا يا ضاير بك .
- أتعرف اسمي ؟
- واسم أيبك ولا مؤاخدة .. وبلدك وكل شيء عنك .
- كيف ؟
- منذ استأجرت للاصطياف هنا عرفنا كل شيء عنك ..
- ودهش صابر غاية الدهشة :
- مخبرات ؟
- أبدا يا بك ، فقط نريد أن نعرف مع من سنتعامل في موسمتنا .
- مشهورون أنتم بالذكاء يا أهل دمياط .
- هذا من ذوقك يا صابر بك .
- قل لي يا مهدي .
- تحت أمرك .
- أنت حوت فعلا أم هو اسم فقط ؟
- هذا يتوقف عما تقصد بالحوت .
- وماذا يمكن أن أقصد ؟
- إن كنت تعني أنني نجشع ، أو أنني أبتلع الأسماك الأخرى فأنا لست حوتا ..
- وضحك صابر حتى اغرورقت عيناه بالدموع وقال :
- بل أقصد هل أنت حوت في العموم أم لا ؟

— ٤٦ —

— آه من هذه الناحية أنا — والحمد لله — أعظم من الحوت ..
تعلمت العوم قبل أن أتعلم المشى .. ونحن يا بك لا نعين هنا إلا بعد
اختبارات دقيقة ..

— عظيم ! إننا سنصبح أصدقاء أيها الحوت العظيم .
— تحت أمرك .

— أريد أن تعلمنى وتعلم ابنى هذا العوم .

— من عيني الاثنين ..

— نبدأ من الغد .

— ومن الآن إذا أردت ..

— غدا نبدأ .

— يحسن أن يكون هذا فى باكر الصباح ، حتى لا يكون البحر مليئا
بالمصطافين .

— البركة فى البكور .. أنا وابنى نصلى الفجر حاضرا والحمد لله .

— إذن نأتى إليك فى السابعة ..

— على بركة الله .

وانصرف مهدى ، وما هى إلا دقائق حتى أقبلت هند فى يدها كرة
غاية فى الأناقة أعطتها لصديق وقالت له :

— قم فالعب بهذه الكرة .

— وحدى يا نينا ؟

— أنا سألعب معك .

وصاح صابر :

— ٤٧ —

— وأنا أيضا .

وفرّح صديق وهو يقول :

— حقا ؟

وقام ثلاثتهم ، وما أن ظهرت الكرة تتألق على ضوء الشمس التى بدأت تستعد للرحيل ، حتى تحلق الأطفال الآخرون حول صديق والديه . وما هى إلا لحظة من زمن حتى كان صابر وهند جالسين وكان الأطفال قد أصبحوا أصدقاء ملعب وكأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ ولدوا ..

وأى شئ يمكن أن يحول بين الأطفال وبين الصداقة ؟ نفوس الجميع منهم جديدة وضيئة صافية كأنها البللور . لا يطمع أحد منهم فى الآخر ولا يرجو واحد منهم عند الآخر غنيمة .. ولا تحقد نفس منهم على نفس . أبرياء هم كالطهارة ، أنقياء كمياء السحاب . أصفياء كالنور .. متألّقون كالأمل .. خلجات الحياة هم ، وإشراق الدنيا لم يزحف عليها غيوم الغروب

تقدم مهدى الحوت إلى صابر وهند وهو مبهور ..

— ربنا يحميه ابنكم جماله ليس له مثيل ..

— بارك الله فيك !

— أنا لا أجامل .. أنا أشاهد آلاف الأطفال .. لم أر جمالا مثل هذا

الجمال ..

— فضل من الله .

— الجمال موهبة من عند الرزاق الكريم ..

— ٤٨ —

— نحمده ونشكر فضله .

— البنات من لحظة نزوله للعب يحطن به يكدن يأكلنه أكلا ..

وتقول هند :

— يا راجل يا طيب إنهن أطفال ..

— أى نعم ، ولكنهن بنات ويعرفن كيف يقدرن الجمال .. ربنا

يحميه ..

وانصرف عنهما وترك الأب سعيدا والأم تتلو ﴿ قل أعوذ برب

الفلق ﴾ ..

* * *

(٨)

كان عبد الغنى وعبد الودود يمشيان على نيل رأس البر بغير هدف ولا غاية .. وعن لعبد الغنى أن يجلسا إلى مقهى يرقبان منها الغادين والرائحين . أو إن شئت الدقة الغاديات والرائحات . وما كادا يجلسان وقبل أن يرشقا الرشفة الأولى من زجاجة المياه الغازية ، حتى علا باسم كل منهما صراخ فرحان التفتا إليه فإذا هما إزاء زميلتهما فى الدراسة رنده الدجوى وبجانبها فتاة تشبهها كل الشبه ، فاستنتج الأخوان فى لحظة خاطفة أنها أختها ..

— عبد الغنى صابر وعبد الودود .. ماذا تصنعان هنا ؟ ..

— من نفسنا ، أليس لنا حق الفسحة مثلك ؟ .. اقعدى ..

— وما البأس ؟ تعالى يا هند أعرفك بالأخوين المتلازمين ..

وصاح عبد الودود فى رنة إعجاب تخافت معها صوت عبد الغنى :

— أهلا ومرحبا ناهد هانم .

وفى تهريجها ما تزال صاحبت رنده :

— هانم مرة واحدة .. قل مدموزيل يكون الكلام معقولا .. حضرته

يا ستى عبد الودود صابر الأخ الأصغر ، قدمته عن أخيه الأكبر لأجل

خاطر لقب هانم الذى أنعم به عليك .. وحضرته أخوه الأكبر عبد

الغنى .. كل منهما ظل الآخر ، لاترين الواحد منهما إلا ملاصقا للآخر .

(الغفران)

— ٥٠ —

وضحك عبد الغنى وهو يقول !

— وأنت ماذا يغضبك فى هذا ؟ .

— متى جئتم إلى رأس البر ؟

— من يومين فقط .

— نحن جئنا بالأمس .. وهذا أول يوم لنا نتمشى على النيل .. هل

وجدت هنا أحدا من الإخوان ؟

— أنا مشيت هنا بالأمس فقط ، وكانت عيني نائمة لم أستطع أن أتبين

الوجوه .

— أنت وعبد الودود أول اثنين أعرفهما على النيل . ماذا تنويان أن تفعلوا الليلة ؟ .

— هل عندك أنت فكرة ؟

— هناك مركب ذاهبة إلى الجرى وفيها بعض شبان ، وأنا وناهد نريد أن

نذهب ولكننا لا نستطيع أن نذهب وحدنا بلا رجل نعرفه .

— ها قد وجدت رجلين .

— هل أنت متأكد ؟

— عمى فى عينك ، وهل ستجدين رجالا أحسن منى أو من أخى ..

— والسلام .. الموجود يسد .

ويضحك عبد الودود فى مرح شديد .. ويقول له عبد الغنى :

— علام تضحك يا أهبل ؟ .. هل تعجبك قلة أديها ؟ .

ويلتفت عبد الودود إلى ناهد ويسألها :

— أنت يا مدموزيل ناهد ما أريك .. هل نصلح أنا وأخى المهمة

الصحية هذه ؟ ..

— ٥١ —

وتضحك ناهد في جاذبية ..

— رنده زميلتكم وهى التى تعرف .

— إذن فأنت موافقة على رأيها ..

* * *

وكانت ليلة من ليالى العمر .. كان ركاب المركب كلهم من الشباب ، وأزال السن ما بينهم من غربة فأصبحوا كأنهم أصحاب عمر بأكمله .. وحكم الراكبون على الفتيات أن تقوم بينهم مسابقة فى الرقص فازت فيها ناهد بالمرتبة الأولى . وكان القمر واحدا من الرفقة قد غدت أضواؤه أوتار الهوى فى الصدور . وعلت الموسيقى أحيانا ، والضحك والسرور كانا صاحبي السيادة على الليلة جميعها .

* * *

تكررت اللقاءات وبدأت الرغبات فى نفس عبد الغنى وعبد الودود تتحدث . ولكن الفتاتين رفضتا إلا أن يكون الشرع هو الرباط بينهم .

— وماله ؟

— هل نتزوج ؟

— تخرجنا ومن الطبيعى أن نتزوج ، فما البأس ؟ .

— ألا ترى أن الفتاتين متحررتان أكثر من اللازم ؟ .

— وأرى أيضا أنهما شريفتان .

— لا شك . وكل الفتيات متحررات . وحسبنا أننا واثقان من

شرفهما .

— هل عرفت شيئا عن أبيهما ؟

— ٥٢ —

— عرفت القليل ، إنما من الواضح أنه ميسور الحال وإلا لما استأجر
شقة للمصيف طوال فترة الصيف .. وأنت ترى أن الفتاتين تلبسان أفخر
الثياب ..

— ألا يهملك شيء إلا المال يا عبد الغنى ؟
— وهل هناك ما هو أهم منه ؟ ..
— ولكنك فيما أعتقد لم تأت إلى رأس البر لتتزوج ..
— الولد صديق ملازم لأبينا .. وجاءنا أيضا الحوت فعلمه العوم على
أصوله ..

— هل يئست ؟
— من رأس البر نعم .
— ولكنك لم تعدل عن فكرتك .
— هيات .. ها نحن هذان سنتزوج وسننجب أطفالا طبعاً .
— هل أنت واثق ؟
— هذا هو الطبيعي ، من يتزوج ينجب غالباً .
— فلماذا تنكر هذا الحق على أبينا ؟
— لأنه أبونا .
— أهذا ذنبه ؟
— هذا قدره .
— المهم ستكلم أنت أبى أم أكلمه أنا ؟
— نكلمه معا .

— ٥٣ —

— على بركة الله .

وأقام صابر لولديه فرحا باذخا ، واستأجر لكل منهما شقة بعمارة
واحدة حتى يظلا متلازمين كما تعودا طوال حياتهما ، وأتاح لهما فرصة
أوسع في إدارة الأرض وإن لم يترك لهما الأمر جميعه .
وخلا البيت بهند وصابر وصديق .

(٩)

بدأ عبد الغنى ينهج نهجا جديدا نحو أخيه صديق دهش له صابر بعض الدهشة ، ولكنه فرح به كل الفرح ..

صار عبد الغنى يعنى عناية فائقة بشأن صديق .. ويذهب إلى مدرسته في فترات متقاربة ويبلغ أباه بسعادة مقدار تفوق صديق ، وإعجاب المدرسة به من ناظر إلى أستاذة إلى تلاميذ . وشارك عبد الودود في هذه العناية مشاركة غير خافية، وظن صابر في براءته وهند في نقائها أن الكبيرين يريان أحاهما الأصغر شكرا لما هياه لهما أبوهما من حياة زوجية مستقرة وبيت سعيد لكل منهما .

وحين حاول الأب أن يتعمق الأمر .. لعلهما الآن يحسان باقترابهما من الأبوة ، وربما راوحت نفسيهما هذه العواطف فهزت حنايا الحب والأخوة معا نحو أخيهما الذى يكاد أن يكون منهما بمكان الابن أيضا .

وهكذا لم يكن غريبا أن يأتي عبد الغنى إلى أبيه :

— اترك لى صديق أخرج به إلى الدنيا .

— أخاف عليه .

— منى ؟

— من غيرك .

— سأخرج به أنا وعبد الودود وزوجتنا .

— ٥٥ —

— أين تذهبون به ؟

— إلى حيث يلعب هو وتسلّى نحن .

— أين ؟

— إلى الملاهى .

— الملاهى ؟

— ماها ، أليست للأطفال ؟

— إى نعم ، ولكن ألعابها خطيرة .

— ونحن معه !!؟

— الآلات لا قلب لها ..

— ولكن قلوبنا معه .

— أخاف عليه .

— توكل على الله .

وصحب عبد الغنى صديق إلى الملاهى وذهب معه عبد الودود
والزوجتان . وفى الملاهى أوكّل عبد الغنى إلى رنده وناهد أمر صديق .
وجلس هو مع أخيه فى مقهى الملاهى يقطعان الوقت بالحديث .. وسار
صديق مع زوجته أخويه وكانتا عنه لاهيتين ، وإنما هما تمران فى شبه تأدية
واجب ليس حبيبا على ألعاب الملاهى ، وهو وراءهما لا يسألانه عما يجب
أن يشترك فيه من ألعاب . وأحس صديق بالعطش فتسلّل دون أن تحس به
الأختان إلى المقهى ورأى من بعيد أخويه منهمكين فى الحديث . فقصد إلى
داخل المقهى وطلب ماء ، وحين هم بالخروج من الداخل سمع اسم صديق
على لسان أخيه عبد الودود ، فاقترّب من أخويه دون أن يرياه وسمع

— ٥٦ —

عبد الغنى يقول :

— لا بد أن أنتهى منه اليوم ..
— يا أخى أجلها إلى يوم آخر ..
— إن ابى لم يسمح لى باصطحابه إلا بمجهود شديد ، فكيف أطمعن إلى
أنه سيسمح بذلك مرة أخرى .. أقتله اليوم .
— وماذا أنت قائل لأبيك ؟

— وقع .. مات .

وارتعدت فرائص صديق ، وأيقن أن الحديث عنه فراجع عن مكانه
خذراً أن يراه واحد من أخويه .. حتى إذا اطمأن أنه ابتعد عن المكان تلمس
طريقه إلى خارج الملاهى يبحث لنفسه عن ملجأ من قاتليه ..
وراح يعدو يعبر الشارع المزدهم بالسيارات ، فإذا بسيارة تصدمه
ويغيب عن الوعي ..

نزل راكب السيارة وحمله ووضع في المقعد الداخلى وأجلس زوجته
بجانبه . وانطلق بالسيارة قبل أن يتجمع الناس حوله ، وما لبثت السيئة أن
قالت :

— قلبه ينبض .. لا تخف .

— اليس به جروح ؟

— جرح بسيط بجبهته .

— أنذهب إلى المستشفى .

— لا داعى .. اذهب بنا إلى البيت .. ما الداعى للمستشفى وس وج .

الولد ليس به شىء ..

— ٥٧ —

- هو الذى كان يجرى ..
- هل نحن فى تحقيق ؟ .. اذهب إلى البيت .
- وقبل أن يصل إلى البيت كان صديق قد أفاق من غشيته ، وتلفت حواله غير مصدق أنه نجا . وسأله السيدة :
- الحمد لله على سلامتك .
- من حضرتك ؟
- ستعرف كل شيء .
- وإلى أين نحن ذاهبون ؟
- إلى بيتنا .
- بيتكم أنتم ؟
- نعم أم تحب أن نذهب بك إلى بيتك ؟
- بيتى .. بيتى .
- وتذكر صديق وتملكه الملح ، وصاح فى عفوية وفى غير تدبر :
- أنا ليس لى بيت .
- كيف ؟ هل هناك أحد ليس له بيت ؟
- فقال فى تلجلج :
- أقصد أننى لا أعرف بيتنا .
- ما اسمك .
- ودون روية قال :
- صديق .
- واسم أهلك .

واسترد صديق وعيه وأدرك انه يحاول أن يهرب ، فسكت قليلا
وقال :

— إبراهيم .

— إبراهيم ماذا ؟

— لا أدري .

— وأين تسكن ؟

— لا أدري .

— كنت مع من في الملاهى ؟

وأدركه الهلع وهو يتذكر ، ووجد نفسه يقول :

— كنت .. كنت وحدى .

— كيف ؟

— لا أدري .

وأدرك الزوجان أن الطفل يخفى أمره في إصرار .. وقالت الزوجة :

— أنت تأتى معنا إلى البيت ثم نبحث الأمر ..

وهوم صمت .. وكان صديق لا يخشى شيئا قدر خشيته أن يعرفه
هذان الزوجان ويعيدها إلى بيت أبيه ، فقد أصبح على ثقة أنه لن ينجو من
القتل ما دام أخواه يضمران هذه النية .. وثبت في روعه أن أباه لن يستطيع
أن يحميه . بل إن الخوف صور إليه أن أباه قد لا يطول به العمر .. وحيث
من يحميه من هذين الأخوين ؟ .. كان صديق مذعورا ملتاعا هالعا أسيفا
فقد كان يحب أخويه غاية الحب .. وهاله ما ظهر له من دخيلة نفسيهما ..
تولاه صمت صاحب يفكر فيما ينتظره من قابل الأيام ..

— ٥٩ —

وبلغت السيارة منزلا قريبا من صحراء .. ونزل ثلاثتهم ..
وراحت السيدة تضمد الجرح الصغير في جبهة صديق .. حتى إذا هدا
روعه أو خيل إلى الزوجين أن روعه هدا سأله الزوج :

— أكل ما تعرفه أن اسمك صديق إبراهيم ؟

— أين تسكن ؟

— لا أعرف .

— أتذهب إلى مدرسة ؟

— أذهب .

— أين تقع ؟

— لا أدري .

— يا ابني لقد أوقعتنا في حيرة بالغة .

وقالت الزوجة :

— نبقه عندنا بضعة أيام ونرى .

وقال الزوج :

— أنسيت أننا مسافران إلى أوربا الأسبوع القادم ؟

— من اليوم إلى يوم السفر يحلها الذي لا تغفل له عين ..

— ألا ترين أن نبليغ الشرطة ؟

وفزع صديق صائحا :

— لا .

وعجب الزوجان وقال الزوج :

— لماذا تخاف من الشرطة يا صديق .. ؟

— ٦٠ —

ولم يجد صديق ما يجيب به ، وعاد إليه الزوج يسأله :

— أين كنت قبل أن تصدمك السيارة ؟

— كنت .. كنت .. كنت في الملاهي .

— وحدك ؟

وبعد تردد طويل قال :

— رحلة مع المدرسة .

— ولماذا تركت مدرستك ؟

— تبت .. وكنت أبحث عنهم .

وتقول الزوجة :

— يا وحدى أنا خائفة ... ولا بد أن نبليغ الشرطة .

وفي فزع صرخ صديق مرة أخرى :

— لا ..

وتعجب وحدى وسأله :

— ما الذي يخيفك من الشرطة ؟

— لا أحب الشرطة ..

— ألا تريد أن ترجع إلى أبيك وأمك ..

وفي عفوية طفلة قال دون ريث من تفكير :

— لا .

— أنت طبعا لا تعرف عنوان بيتكم ..

وفي سرعة فائقة :

— لا .

— ٦١ —

— ولا الحى الذى تسكن فيه ؟

— لا .

والتفت وجدى إلى زوجته ..

— إن فى الأمر سرا .

وقالت الزوجة :

— عجيب أمر هذا الطفل .. أنا لم أر فى حياتى طفلا فى مثل جماله ،

بل إننى أعتقد أن الله لم يخلق طفلا على صورته .. أبدا .. كيف لا يضعه أهله فى أعينهم ؟.

وهوم صمت فيه حديث وضجيج وصراع ، وآمال ومخاوف ، وهلع

قاتل وإعجاب أخاذ ، وتردد بين إقبال وإحجام

وقطع وجدى الصمت قائلا :

— خذى صديق إلى حجرة نوم ليسترخ قليلا ، وأنا سأذهب

وأشترى له بعض ملابس بدلا من حلتة التى تمزقت فى الحادثة ..

وفى ذكاء المرأة قالت الزوجة زهيرة :

— فيم تفكر يا وجدى ؟

— نتحدث بعد أن نعود .

والتفت زهيرة إلى صديق :

— أأست جائعا يا صديق ؟.

وفى براءة وصدق :

— أكاد أموت من الجوع ..

— ٦٢ —

— سأعد لك طعاما ، وادخل أنت إلى الحمام أتعرف كيف
تستحم .. أم أن والدتك هي التي كانت تتولى هذه المهمة ؟ ..
وفي تردد تلجلج لسانه قائلا :
— بل .. بل .. أعرف .
ولكن زهيرة أدركت تهيئه وقالت :
— تعال سأتولى أنا حمامك .. تعال .

* * *

(١٠)

صرخت الفرملة في الملاهى ججججا حين ضغط عليها وجدى في محاولته لإنقاذ صديق .. والتفتت الرعوس جميعا إلى مصدر الصوت .. وهرع عبد الغنى يلحق به عبد الودود إلى الطريق العام .. ورأيا صديق ملقى على الأرض . وفغر عبد الودود فمه وأوشك دون ريث من تفكير أن يصبح بالاسم ، ولكن عبد الغنى عاجله بلكزة قوية في صدره جعلت صبيحته تتحول تلقائيا إلى :

— آه ..

وهمس :

— ولا كلمة .

وشاهد الأخوان وجدى يحمل أخاهما ويضعه في السيارة وينطلق قبل أن تتاح فرصة لرواد الملاهى وعابري السبيل أن يتجمعوا حول الحادثة .. وهمس عبد الودود :

— ألا نأخذ نمرة السيارة ؟ ..

وقال عبد الغنى :

— وماذا نصنع بها ؟.. المسألة جاءت من عند ربنا .. الولد مات ..

لا شك في ذلك ..

— كيف عرفت ؟

— ٦٤ —

— الذراعان الساقطان والرأس المائل .. الولد مات ، وهذا الذى حملة
فى السيارة سيحاول أن يدفنه فى أول تربة .. إنها فرصة عمر أن أحدا لم
يعرفه ولا حاول أحد من الواقفين أن يكتب رقم السيارة .. سبحان الله
العبد فى التفكير والرب فى التدبير ، جاءت من فوق ..

— ما كل هذه الثقة ؟

— أحسها من داخل .. أنا متأكد .

وجاءت الزوجتان تبحثان عن زوجيهما وأخاهما ، فطالعهما عبد الغنى
بالنبا فى محاولة هزيلة للتفجع ..

— مات ..

— ماذا ؟ ..

— كيف ؟

وفى خبث إجرامى يحمل الزوجتين المسئولية .

— ألم يكن معكما .. لماذا تركتماه ؟

وقالت رندة :

— وهل تصورنا أن يتركنا ؟ كنا نتحدث وحين التفت إليه لأعرض

عليه أن يلعب لعبة الجبل كان فص ملح وذاب ...

— وماذا أخرجه إلى الشارع ؟

وقال عبد الغنى فى صوت عجز عن أن يجعله ملائما للمناسبة :

— قدره ..

وقال عبد الودود :

— وقدرنا .

— ٦٥ —

وفكر عبد الغنى قليلا ثم قال ..

— نعم وقدرنا ..

وغمر الذهول وجه الأختين ، وقفز إلى ذهن أربعتهن في لحظة واحدة
ما رددته رنده :

— ماذا نحن قائلون لعمى صابر ؟

وقالت ناهد :

— أنا ساقى لا تحملاننى .. تعالوا نجلس ونفكر .

وقصد أربعتهن إلى المقهى .. وسكت عبد الغنى منتظرا رأيهم .. وقال
عبد الودود :

— غير معقول أن نذهب إليه ونقول له صديق مات .

وقالت ناهد :

— وماذا يمكن أن نقول ؟

قالت رندة :

— على كل حال لا بد أن نقوم الآن إلى قسم الشرطة ونبلغ .

وقال عبد الغنى :

— إذا لم نفعل نحن هذا سنكون مقصرين أمام أبينا .. وسيذهب هو إلى
قسم الشرطة .

وقام عبد الغنى وهو يقول :

— هيا نذهب إلى الشرطة بدلا من تضييع الوقت .

وفي قسم الشرطة تولى عبد الغنى إلقاء البلاغ .. وكان البلاغ حاسما
في تضليل كل من يحاول البحث عن أثر لصديق ، ولم يذكر شيئا عن وثوقه
(الغفران)

من موته إنما ذكر ما رأى ولم يذكر ما يظنه أو ما يراه ..
 وخرج أربعتهم إلى مواجهة الأب والأم الجازعين في البيت ، وقد
 حاصرتهم الحيرة لا يدریان ماذا يصنعان يتوجسان من التأخير في هلع
 بالغ . وحين بلغ ركب عبد الغنى البيت وجد الأب والأم معا هما من
 يفتحان الباب ، وكانت وجوه الأربعة تحمل الخير القاتل فانهذ صابر
 جالسا وصاحت الأم في لوعة :

— صديق .. صديق ..

ودخل الأربعة وأغلق الباب وقال عبد الغنى :

— ربنا وحده القادر على أن يلهمنا الصبر .

ودون وعى قال صابر :

— ماذا صنعتم يا بنى يا عبد الغنى ؟

وقال عبد الغنى في جزع :

— إنه أخونا .

وأعاد الأب جملة :

— ماذا صنعتم يا بنى يا عبد الغنى ؟

وقال عبد الودود :

— كلنا أبناءك .

وقال صابر :

— ماذا دبرتم ؟

وصاحت ناهد :

— دبرنا ؟ وهل تشك فينا يا عمى ؟

— ٦٧ —

ولم يلتفت إليها صابر وإنما نظر إلى عبد الغنى !

— تكلم يا عبد الغنى .. تكلم يا عبد المال .

وقال عبد الغنى :

— بهذه الطريقة لا أستطيع الكلام .. أعطني فرصة .

وأمسكت هند بملابس عبد الغنى في عنف وشراسة ، وفي استجداء

أيضا :

— أين صديق يا عبد الغنى .. قل أى شيء إلا أنه مات .. أى شيء إلا

أنه مات ..

— لا .. إن شاء الله .. لا .

وراحت تهزه وتقول :

— إذن قل .. تكلم !

وجلس عبد الغنى وراح يروى القصة ، حتى إذا انتهى منها قال

صابر :

— لم يمت يا عبد الغنى .. أنا على وعد من الله أنه لن يموت قبلى ..

ونظر عبد الغنى وعبد الودود وناهدا ورنده إلى بعضهم البعض وأكمل

صابر :

— ما هذه النظرات .. أحسبتم أنني جنت ؟ .. هذه آمال .. أجن أنا

ويموت صديق ! ليس في العالم مال يساوى أن يقال عنكما إن أبكما

مجنون .. وليس في العالم مال يساوى روح إنسان .. أى إنسان . فما

بالك إن كان هذا الإنسان أخاك .

وأحس عبد الغنى أنه أصبح صفحة بيضاء أمام عيني أبيه يقرأ دخيلة

— ٦٨ —

نفسه ، وأكمل أبوه :
— إن صديق لم يميت .. لم يميت .. والأيام بيننا يا عبد الغنى ويا عبد
الودود . وستريان ..
وارتمت هند صامته ذاهلة على أريكة .. وصاحت رندة :
— أهذا معقول يا عمى ؟
وصاح صابر :
— اخرجوا الآن واتركوا أباكم الذى حطمت .. وأمكم التى ربتكم
كأبنائها ولم تشفقوا على وحيدها ..
وحاول عبد الودود أن يقول :
— ولكن يا ..
وقبل أن يكمل يصيح أبوه :
— ولا كلمة .. اخرجوا الآن .. والموضوع لم ينته بل لن ينتهى
إلا حين يعود صديق .. وسيعود رغم أنفك يا عبد الغنى ورغم أنفك
يا عبد الودود .. هيا اخرجوا .. أريد أن أفرغ لهذه المسكينه وأبث إلى قلبها
الإيمان الذى فى قلبى ..

* * *

(١١)

وضعت أمامه طعاما وراح يأكل ، وراحت تنظر إليه في إعجاب شديد وفي عجب أشد أن له سرا لا يريد البوح به . وكان صديق جائعا فراح يأكل وكأنه يرى ما يدور بذهنها ، فهو يخشى أن تحادثه ويخشى أن تستدرجه . وفي ذكاء المرأة الموهوب والمكتسب قالت زهيرة :
— كل وأنت مطمئن .. لن أسألك شيئا .. ولك الحرية المطلقة في أن تحتفظ بسرك .

وحين حاول أن ينفي احتفاظه بسر قاطعته :
— لا تقل كلمة ، فقط كل . وتأكد أننا سنجعلك سعيدا .
وآثر صديق الصمت وراح يأكل وهو أكثر اطمئنانا .
وجاء وجدى ومعه ملابس لصديق ومن بينها ييجاما للنوم ، وأمسكت بها زهيرة :
— أحسنت يا وجدى إنها مناسبة له . هيا يا صديق لتلبسها وتستريح قليلا .

ولبى صديق الأمر تاركا أمر مستقبله لله . وحين هدأ به الفراش قال في نفسه : ما مصير ذلك الحلم الذى رأيته منذ قريب ورويته لأنى ؟ كنت فى الحلم تائها ومع ذلك كنت أعرف طريقي . أسير فى سرايب لا أتبين

— ٧٠ —

معالمها ولكننى كنت فيها أسير على هدى . وانتهت إلى الطرقات المتشابكة من العتبة إلى جبل شاهق . رأيتنى وكأنتى أقف على قمته وفي السفح عبد الغنى وعبد الودود وناهد ورندة ومعهم أبى وأمى يشيران إليّ أن أصفح عن أخوتى . وأفهم الإشارة وأرى في سمتها الشمس وكأنها تطلب إليّ أن أستجيب لما يشير به أبى وأمى .

حين روى لأبيه الحلم وقد فرغ من صلاة الفجر وقرأه ، التفت إليه وقال :

— أنت مبارك يا صديق . احفظ عليك رؤياك لا يعلمها أخواك .
أترانى اليوم أبدأ مسيرتى في التيه .

* * *

قالت زهيرة :

— أراك قد عزمت أمرك على شيء .
— لا أستطيع أن أبث في الأمر قبل رأيك .
— ماذا تريد ؟ وإن كان يخيل إلى أنى أعرف ما تريد .
— إنك لا شك عرفت .
— أترى هذا ؟
— وما البأس ؟
— ليس صغيرا .
— لا يهم .
— والناس الذين نعرفهم ماذا نقول لهم ؟

- طفل فقد أهله وتبيناه .
- وشهادة الميلاد ؟
- إننى فى مكان أستطيع منه أن أستخرج عشرين شهادة ميلاد إذا أردت .
- أجهل طفل رأيته فى حياتى .
- أستخرج جواز سفر له ؟
- افعل .
- غدا يكون جوازه بين يديك .

* * *

وفى الغد كان جواز السفر بين يدى زهيرة ومعها شهادة ميلاد تثبت أن صديق اسمه صديق وجدى البطاش .

وفى نفس الغد كان صابر فى قسم الشرطة يسأل إن كانت الشرطة قد وصلت إلى جديد فى شأن ابنه . ثم هو يترك القسم ويذهب إلى الملاهى ويجلس بها وإنما مجلسه لها كان بين روادها عجباً . إنه يولى ظهره للملاهى ويستقبل الشارع ينظر إلى الطريق والسيارات وكأنما ينظر قادمًا هو واثق من مجيئه .

سافر وجدى إلى بولنده وكان فى بعثة لمدة سنة ليشهد نظام السجون هناك ، فقد كان وجدى ضابطًا بدرجة رائد فى السجن الحرنى . وقد استطاع أن يدبر هذه البعثة وشجعه عليها الرؤساء ليحاولوا عن طريق بعثته أن يرفعوا إلى رأس النظام تقريراً يثبت أنهم أكثر شدة من كل السجون

— ٧٢ —

- التي تشرف عليها النظم الشيوعية .
- وحين صحب وجدى وزهيرة صديق فكرا فى البطائرة :
- ماذا نحن صانعان به هناك ؟
- لقد أفهمت سفيرنا هناك أن معى طفلا وأريد أن يواصل تعليمه .
- وماذا قال لك ؟
- قال لا مشكلة .
- واكتفيت بهذا ؟
- وماذا تريدنى أن أصنع ؟
- تستفهم .. تسأل .. تعرف .
- فى التليفون ، والخطوط مراقبة ؟
- وهل يهلك أنت الخطوط المراقبة ؟
- أنا أكثر من أى إنسان فى مصر .
- فلماذا لا تراقب الله فى بيتك .
- وصوت خفيض ملء بالذلة قال :
- هل ينقصك شىء ؟
- وفى جرة المرأة إذا كان الحق فى جانبها :
- ألا تعرف ؟
- وفى ذلة أخرى تحاول أن تبعد عن بؤرة الدوامة :
- أنت تعيشين أحسن عيشة .. قىلا وسيارة وطلباتك أوامر تتسابق
- إلى تنفيذها إمكانات دولة بأكملها .
- إذن فلا ينقصنى شىء .

- مؤكد .
- وجدى .
- نعم .
- من أين تأتى بهذه الجرأة ؟
- ألسنت ضابط جيش ؟
- فى السجن تنفذ عذاباتك على الغزل الذين لا يملكون حربك .
- عملى فى السجن .. على كل ضابط أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه .
- خالفة الأوامر جريمة قد تصل عقوبتها إلى الإعدام .
- أنتم تنفذون الإعدام بلا جريمة على الإطلاق .
- اسكتى الله يخرّب بيتك .
- أكثر من هذا الخراب .
- اسكتى .
- أنتظن أن أحدا يسمعنا الآن ونحن فى الطائرة .
- من يدري ؟
- كيف تقول إنك تعلمت الجرأة من الجيش .
- الجرأة على العدو لا على النظام الذى أعمل واحدا من أجهزته .
- وهل أنا عدو ؟
- ألعن .
- اسمح لى أن أعود إلى سؤالى الأول وأعدله بعض الشيء .. من أين تأتى بهذه الصفاقة ؟
- صفاقة !

— ٧٤ —

- أليست صفاقة منك أن تقول إننى لا ينقصنى شيء ؟
- طبعا لا ينقصك شيء .
- أنت الذى تقول هذا ؟
- وكل الناس تقوله معى .
- أسمح لكل الناس أن يقولوه إلا أنت .
- لماذا ؟
- يا لك من فاجر .
- فاجر ؟؟
- أقل وصف طاف بذهنى .
- ألا تقومى إلى صديق الذى يجلس وحيدا .. ألا يكفيه شعوره
- بالبعد عن أهله الذين يرفض أن يقول عنهم شيئا ؟
- ودون أن تعبر محاولته لتغيير الحديث أدنى التفات استمرت فى
- هجومها الشرس :
- أنا يا وحدى لا ينقصنى شيء !
- مؤكد . قومى إلى صديق .
- ألا تعرف ماذا ينقصنى ؟
- يا ستى فهمت .
- فهمت ؟ يا لك من ذكى !.. أحتاج هذا إلى فهم ؟
- إذن فلماذا هذا الهجوم ؟
- كان ينبغى أن تطلقنى من أول يوم عرفت فيه أنك عاجز تماما
- كرجل .

— وأفضح نفسي ؟

— ليس هذا ما يمنحك . أنت تعرف أنني لن أقول شيئا .

— وكيف أعرف ؟

— ومن أجل هذا ترفض أن تطلقني وتجعلني تحت المراقبة الدائمة ...

أهذه رجولة ؟ آسفة .. أنت أصلا لست رجلا . ولكن لا بد أنك إنسان

ولكن كيف ؟ من أين لك الإنسانية ووظيفتك التي تعيش عليها هي قتل

الإنسانية في الإنسان . أنت مخلوق شاذ ، لا من البشر أنت ولا أنت من

الحيوان لأن الحيوان يأكل فريسته ولا يعذبها . أنت ..

ويقاطعها وحدى في محاولة للحزم :

— زهيرة كفى .

— ثورة تحرق نفسي أطلقت لها العنان في أول لحظة شعرت فيها أنني في

حمى الله بعيدا عن مصر، وأنتى أستطيع أن أقول ولا تهددنى بما تملكه في مصر

من جبروت وظلم وطغيان . أقوم الآن إلى صديق .

وقامت إلى صديق وبدأت معه الحديث محاولة أن تزيل عنه الغربة

المادية والنفسية التي يعانها ، ولم تدهش حين وجدته سعيدا بأنه في الطائفة

بعيدا عن أهله ..

— ترى ما الذى يلاحقك أنت أيضا أيها الطفل رائع الجمال في بيت أمك

وأبيك ؟ كان الله لك يا بنى وكان الله لى .

— ٧٦ —

(١٢)

لم يكن عبد الغنى ولا عبد الودود يتصوران أن يحيط كل هذا الدمار
بأبيهما .. حتى لقد كانت هند وهى الأم التى ليس لها إلا صديق أكثر
صلابة من زوجها وتحاول أن تصبره ..
— يا صابر .. لقد فقدت وحيدى فأستخلفك بالله ألا تجعلنى أفقدك
أنت أيضا ..

وفى إصرار وألم :

— لم تفقدى صديق .. ولن تفقدينى حتى نجده ..
— أتتصور أنه حى ولم يأت طوال هذه المدة ؟
— وأنا أيضا لا أتصور أن يصدم شخص طفلا بسيارة ويختطفه .
— الصدمة قاتلة .. والمجرم أراد أن يخفى معالم جريمته ..
— يا ستى لا يمكن .. أين تظنين أننى كنت أذهب فى الصباح طوال
الأيام الماضية ؟ ..
— لا أدرى ..

— كنت أظل الساعات الطوال فى شارع الملاهى .. حركة السيارات
بطيئة للغاية لزحمة المرور .. لا يمكن أن تكون الصدمة قاتلة فى هذا المكان
مطلقا ..

— ربما كان الشارع خاليا فى هذا اليوم ..

— يوم الجمعة والملاهي مزدحمة والمرور لا يسمح أن تسير سيارة بسرعة
تؤدي إلى قتل من تصدمه ..

— لا يمكن أن تثق كل هذه الثقة من أجل استنتاجات مثل هذه يا
صابر .. أرجوك .. تحتسب الله .. ولا توجد في نفسي أملا أعلم أنه لن
يتحقق ..

— بل سيتحقق وبترين إن شاء الله .

— من أين لك كل هذه الثقة ؟

— ومن يملك أن يرسل الثقة في النفوس إلا الواحد الحق . الملك ..
القلوس ..

— مادمت مطمئنا فقيم حزنك ؟

— إنه بعيد عني ولا أعرف عنه شيئا .. ما مصيره ؟ .. إلى أين تقوده
مناهاة الحياة ؟ .. هو حي .. هو حي لم يميت أنا واثق .. لأن الله يمدني
بهذه الثقة .. ولكن كيف يحيا حياته .. ما مصيره ؟ .. إن الله لا يتلى إلا
عباده المؤمنين .. هو مولانا وعليه توكلت .. وإليه المصير ..

— وهل معنى هذا أن تترك زراعتك ولا ترعى شأنك ؟

— اسمعي .. أولادى أهملوا شأن أخيه من أجل الزراعة .. وكلاهما
خرج زراعة . سأترك لهما كل شيء ولكنني سأحتفظ بالملكية حتى تقسم
على ثلاثتهم وليس عليهما وحدهما .. فليفعلا ما يريدان ولكنني سأظل أنا
المالك ..

وكذا انفرد عبد الغنى وعبد الودود بشئون الأرض يديرانها كيفما
أرادا ، ولكن صابر كان دائما قابضا على ما تغله يعطى ولديه ما يريد أن

— ٧٨ —

يعطى وينفق ما يشاء ويدخر ما يشاء .. وقد كان دائما حريصا على أن يجنب مبلغا من المال يعتبره حق صديق الذى ينبغي أن يبقى له لا يعدو عليه أحد .

* * *

كان المال يدخره صابر لصديق .. وكان صديق قد التحق فى بولندة بمدرسة تعلم اللغة الإنجليزية فبهر المدرسين هناك بسرعة تعلمه بصورة لم يشهدوها واحد منهم قط .. وقد جعلهم هذا يتعهدونه بالرعاية ويمدونهم بالكتب وصديق يسير فى تعليمه مقبلا عليه غير ملتفت إلى ما يلهو به أبناء سنه من ملاعب الأطفال . حتى لقد كانت زهيرة ووجدى يحثانه على اللعب فيتأبى عليه . وكما بهر صديق مدرسيه .. بهر وجدى وزوجته بمحافظته على الصلاة فى مواقيتها .. وحين أدر كههم شهر رمضان هناك أصر على الصيام حتى لقد نخجل منه وجدى وزهيرة وصانما هما أيضا .. وأمرهما إلى الله ..

وتمر السنة وتعود الأسرة التى أصبحت ثلاثة نفر إلى القاهرة .. وفى الطائفة يسأل وجدى صديق :

— ما رأيك يا صديق أتذهب إلى مدرسة عربية أم تكمل الدراسة بالإنجليزية ؟

— أفضل أن أتمها بالإنجليزية ..

— لك ما تريد .

وتقول زهيرة :

— إنها فرصة أن يتعلم الإنجليزية وهو أصلا قوى فى اللغة العربية ..

— ٧٩ —

— معقول ..

— وخاصة أنه دائما يقرأ في القرآن فلا خوف عليه في اللغة العربية

أبدا ..

— لقد حفظت ربع القرآن والحمد لله ، وفي فترة قليلة سأحفظه

كله ..

وفي اليوم التالي لوصولهم إلى القاهرة يقيد وجدى اسم صديق في

مدرسة أساس التعليم فيها باللغة الإنجليزية ..

.. وتمر السنون ..

* * *

(١٣)

ينفرد عيد الغنى وعيد الودود بالأرض تماما .. ويصبح صابر وهو لا عمل له إلا الصلاة والعمرة والحج .. والعجيب أن ولديه لم يستطيعا أن يغلباه على أمره .. فإن أحدا منهما لا يملك التوقيع .. ولا بد من توقيع صابر على كل المعاملات التى تتصل بالأرض .. وحين حاول عبد الغنى أن يقول :

— يا بابا أنت تسافر كثيرا والمعاملات المالية تحتاج إلى ..

قاطععه صابر فى جزم ودون أى تفكير :

— إذا كنت تريد أن أكتب لك توكيلا لأصبح أنا وكأنى غير موجود.

فهيهات . هذه الأرض ملكى .. وستقسم على أبنائى الثلاثة عند موتى وتأخذ زوجتى نصيب الثمن حقها الشرعى ..

— ولكن يا أبى ..

— أى محاولة أخرى سأعود أنا إلى إدارة الأرض إدارة كاملة ..

— ما أحب إلينا .

— لا تستطيع أن تخدع أباك. إن الذى لا يقدر ذكاء الآخرين ويحاول أن

يتذاكى عليهم غبى لا يفهم ..

— وهل حاولت ؟

— صدمتى فى ابنى لم تفقدنى عقلى ، وإنما زهدتنى فى الأرض التى

جعلت الإخوة يهملون الأخ . أما عقلى فقد ازداد حدة وازدادت إدراك للحياة . وإقبال على العبادة حب فى الدنيا وفى الآخرة .. وتعشقى للذات الربانية جعلنى أكثر فهما للحياة وإدراكا لها .. نحن الربانيين أعقل من يمشى على الأرض .. والذى يعاملنا على غير هذا الأساس غبى لا يفهم .. وهكذا استقر الأمر على أن يدير عبد الغنى وعبد الودود الأرض ما طابت لهما الإدارة ، ولكن إصدار المال واستقباله يكون لصابر وحده .. وقد زرع عبد الغنى وأخوه الذى كان أشبه بتابع له الأرض جميعها موالح . وأصبح عائد الأرض عشرة أضعاف عائدها حين كان صابر يديرها .. وقد استطاع الشبان المتخرجان فى الزراعة أن يتجوا من أرض الموالح أحسن ما تستطيع أن تعطيه كمية ونوعا ، وأصبح لإنتاجهما شهرة بعيدة ..

* * *

أصبح صابر ذات يوم فوجد نظره يتغشاها ما يعوق الرؤية بوضوح . فذهب من يومه إلى الطبيب ..

فقال له الطبيب :

— لقد تعرضت لصدمات عصبية ..

ولم يجب صابر .

— طبعا تحتاج إلى عملية ..

— هل نجاح العملية مؤكد ؟

— إن شاء الله .

وحين عاد إلى البيت سأله هند فقال :

(الغفران)

— ٨٢ —

— يريد أن يجرى لى عملية .. ولن أجريها ..

— ماذا تقول ؟

— لن أجرى عملية فأنا لا أحتاج لنظري إلى يوم يعود صديق .. حين يعود سأجرى العملية .

— أهذا إيمان ؟

— أنا لا أقتل نفسى ، إنما أنا أستغنى عن جارحة شاء الله أن يصيبنى فيها والله المستعان ..

— وكيف ستقرأ القرآن ؟

— تقرأين أنت لى فأكسب فيك ثوابا ، وتجدين شيئا تصنعينه بدلا من الحزن الذى يفرى كيائك وترفضين أن تبينى عنه ، حتى لا يقال عليك ما يقال على ..

— ما يقال عنك لا يعيبك ..

— إننى لا أفتأ أذكر صديق حتى لقد أوشكت أن أجن ..

— ابنك وحزنت عليه لا ضير عليك ..

— إذن فابكى يا هند كما أبكى حتى تخففى لوعتك ..

— ولماذا أبكى وأنت تقول إنه موجود ، وأنت لم تكذب فى حياتك

قط ..

— إلهذا الحد تثقين بى ؟ ..

— وأى غرابة فى ذلك .. أنت جدير بكل ثقة ..

— أكرمك الله قدر ما تعذبت يا هند .

— أكرمنى أنت حتى يكرمنى الله ..

— ٨٣ —

— وهل قصرت ؟ ..

— أجر العملية .

— أنا لا أريد أن أراك حزينة وأرى ولدىّ فرحين بما حققا من نجاح ..

ربما خفت ضياع بصرى من الآلام التى أطلعها بعينى فى حياتى ..

— أليس الإبصار إكرامًا من الله ؟

— ولسبب أرادته حجبته عنى فترة .. الحمد لله على ما أعطى والحمد له

على ما أخذ .. ولن أحاول أن أسترد بصرى إلا إذا كان هناك ما أحب أن

أراه .

* * *

(١٤)

نال صديق شهادة الثانوية العامة وقدم أوراقه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فقبلت ، فقد كان من أوائل الحاصلين على الشهادة .
وحدث أمر عجيب .

كانت زهيرة في حجرتها تتزين فهي حريصة دائما على أن تتزين .
وحين أكملت زينتها نظرت إلى المرأة بحسرة ملتاعة وتصادعت من كيان المرأة فيها حياء نيران متقدة بالحريق ، وشعرت أنها إذا ظلت رائية إلى المرأة ستحطمها ، فسارعت تخرج من الغرفة ومرت بحجرة صديق واقفا أمام المرأة يكمل ملابس نومه فراعها ما رأت .

من هذا الفتى الشاغل الجمال المفتول العضل السمهرى القامة ذو الكبرياء الأشم ؟ ويلي إنه ليس ابنى ، إنه فتى لا أعرف من أبوه ولا أعرف أمه ، وإنما بذلت له من نفسى السنوات الطوال ليدرج من الطفولة إلى هذا الشباب النادر .

وقفت زهيرة على باب الغرفة يغمرها الذهول ، تمرقها الجرأة فيها ، تدفعها الأنوثة ويردها الحذر .

أهذا هو الفتى الذى قدم إلى بيتى خائفا ملتاعا يتسربل رعبه ، ويرد بيتى غوافل حياة طالعه بالأهوال وبالرعب وبالتهديد وبالويلات ؟ أهذا هو الطفل الذى دخلت معه الحمام يوم مجيئه والذى احتضنته من أهوال

الحياة وأقمت عليه الحصون مما كان يهدده ؟ أهذا هو مشروع الإنسان الذى جاء إلّى يتكفى فى مخاوفه ومحاذيره فأمنته ورعيته حتى أصبح هذا الرجل كله ؟

ألم يكن الأوان أن يصبح لى رجلا بعد أن كان فى بيتى طفلا ما كنت أنا أمه .. وما كان صاحب حق عندى ؟ فما البأس به أوى أن يكون فتاى ؟ ذهبت إلى غرفتها وخلعت ملابسها وارتدت قميصا داخليا ووقفت بالباب ونادت :

— صديق .

وجاءها صوته :

— أفندم .

— هل أنت خارج ؟

— لا أبدا .

— تعال .

— حالا .

وفى لحظة كان عندها فقد كانت إشارتها عنده أمرا وقبل أن يجيء كانت قد سارعت هى إلى السرير واستلقت عليه معتمدة رأسها على كفها. وما إن دخل حتى قامت إلى الباب الذى دخل منه فأغلقت وسارعت إلى باب الحجرة الآخر الذى يؤدى إلى حجرة زوجها والذى لا يستعمل مطلقا فأغلقت هو الآخر والتفتت إلى صديق :

— قبلنى .

وأصابه ما يشبه الجنون . ما هذا الذى يراه ؟. إنه كان يتصور أى شىء

إلا هذا . إنها امرأة في قمة الجمال ولكنها في مكان أمه . وما قيمة هذا إنه ليس زواجا . إنها جميلة .. إنها المرأة كما ينبغي أن تكون المرأة . قبلها في خدها .

وصرخت :

— أهذه هي القبة .. القبة هكذا .

والتفت فمه والتقف فمها وثارت في دماثة نار الشباب المتهب وهم بها ولكنه فجأة ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

صاح : أستغفر الله . كيف أخونه ؟ إنه من فتح لي بيته وأمن حياتي ورباني ... لقد شرذني الظلم فكيف أظلم أنا ؟

وجرى إلى الباب فلحقت به وأمسكت بردائه فمزق في يدها . ودخل الزوج . وأدرك كل شيء .

وحاول صديق أن يقول شيئا ولكن وجدى أشار إليه فسكت وانسحب إلى غرفته وراح يجمع ملابسه . إلى أين في المسير ؟ . إلى أين في يتجه المصير ؟ ..

وقفت زهيرة لوجدى متصدية . إنها امرأة وإنما لاتنال حق الزوجية . فما البأس بها أن تلمس حقها عند غيره ، وبدلا من أن يثور وجدى أطرق في خزي وكأنها هي التي أطبقت عليه متلبسا بالخيانة . فإن الحق قديم ، ومهما يحاول الطاغية أن يعتدى على حق الناس في العلن إلا أنه في دخيلة نفسه يعرف أنه ظالم غاشم يستلب الناس ما لهم من حقوق .

ووجدى يعلم كل العلم أنه يبقى زوجته معه ظلما وبهتان وزورا

واغتصابا .

استخزى وجدى وانسحب مثل قط جريح إلى حجرته واستلقى على الكرسى .

— ماذا أنا صانع الآن ؟ إن ترك البيت فضحتنى ، وإن طلقتها فضحتنى ، وما أنا بمطلقها أبدا . وكيف أسمح لها أن تكون حرة وتتزوج غيرى ويعرف الجميع أن وجدى الأسد الكاسر الذى دوخ الناس وأمر بالاعتداء على أعراضهم وكراماتهم وجسومهم ، عاجز أن يكون مثل أضعف الرجال وأهونهم شأنا .

فز عن كرسيه وسارع إلى غرفة صديق فوجده قد أعد حقيته .

— نعم هذا ما توقعت . لا ، لا تفعل هذا ..

— لا أستطيع أن أبقى فى البيت .. لا يمكن .

— سنرى . وإنما خروجك مستحيل .. إلى أين تذهب ، وماذا

سيقول الناس ؟

— أنت تعرف أننى لن أنطق حرفا .

— فإذا خرجت فإنك غير محتاج أن تقول شيئا . سيقول الناس بالنيابة

عنك كل شيء .

وجم صديق لا يدري ماذا يقول أو يفعل . الكلام الذى يقوله كافله

واضح وصادق . وهو حريص على أن يظل هذا البيت الذى رعى شأنه

من الطفولة الباكرة إلى الشباب نظيفا أمام الناس بعيدا عن كل شبهة ، نقيا

فى سمعته شريفا فى مظهره مهما يكن داخله عفنا شائها . وهو أشد حرصا

ألا يكون هو سببا مباشرا أو غير مباشر فيما يجعل هذا البيت على ألسنة

الناس تشنعا وتجربا وقذا . ويقطع عليه وجدى تفكيره :

— أُنحِب أن تسافر إلى الخارج ؟

— ماذا أصنع في الخارج ؟

— تقضى الإجازة .

— وبعد الإجازة ؟

— بعد الإجازة تعود .

— يا عمى وجدى أنا لن أعيش في هذا البيت أبدا بعد اليوم . ولو كان متاحا لي أن أسافر إلى الخارج لأتعلم لفعلت ، ولكن هذا مستحيل .

وفي شبه حيرة وضياح يقول وجدى :

— لماذا مستحيل ؟

— أنت أنفقت على أكثر مما ينبغي ، وليس معقولا أن أكلفك أيضا أن

تنفق على في الخارج . وأنت يا عمى وجدى في منصب سياسي ،

والمنصب السياسي قد يتغير بين يوم وليلة . فما مصيرى إذا نقلت أنت من

مكانك ؟ سيصبح مستحيلا أن تواصل تعليمي لأنك لن تستطيع أن

ترسل لي مالا بالطريق المشروع ... وستكون تحت العيون . ولن تستطيع

أيضا أن تستعمل الطرق غير المشروعة .. هذا من ناحيتك . ومن ناحيتي

أنا لا أتصور أن أترك مصر أبدا . إن قدرى أن أرتبط بمصر وأنا أعلم هذا

كل العلم .

— فماذا ترى إذن ... أراك تعد حقائبك فأل أين كنت تنوى

الذهاب .

— إلى فندق .

— قد يكون هذا حلا مؤقتا .

— حل مؤقت لا شك .

— أستاذجر لك شقة .

— أنا لن أكلفك بعد اليوم مليما ولو أدى ذلك إلى أن أستجدي في

الطرقات .

— هل هذا معقول ؟ وكيف ستعيش إذن ؟ ليس لك أحد على

الإطلاق .

وقال صديق في نفسه :

— علم الله أن لي أبا لا يجب أحدا في حياته قدر حبه لي ، ولي أم أنا كل

أملها في الدنيا . ولي أيضا مع الأسف أخوان يريدان قتلي . ولكنني لن

أعود قبل أن يعرف الأخوان أنني في غنى عن مالهما .

ولو استطاع وحدى أن يسمع ذلك الحديث الذي انبثق في نفس

صديق لكان له شأن آخر ، ولكن من أين له أن يسمع ؟ وعلا صوت

صديق وهو يقول :

— لي الله .

— ونعم بالله .

— ولن يتركني .

— نعم يا بني ، ولكن الله يهيئ الأسباب فماذا أنت صانع الآن ؟

وصمت صديق وراح وحدى ينظر إليه منتظرا ما يقول . وفجأة رأى

وحدى على وجه صديق نورا كأنما سكبه عليه السماء ، ثم رأى إشرقة

أمل . وقال صديق دون ريث انتظار :

— ٩٠ —

— السجن .

— ماذا ؟

— ما سمعت ..

— ماذا تقول ؟

— أنا الآن سأدخل الكلية ، وكل ما أريده أن أتفرغ للمذاكرة حتى
أخرج بدرجة مشرفة . وأنت مشرف على السجن تستطيع أن تدخل فيه
من تشاء . وإن الداخِل إلى السجن لا يدري كم سيبقى .

— أهذا معقول ؟

— أعزل العالم .

— وإذا انتقلت أنا وتركت السجن ؟

— أخرجني قبل أن تترك مكانك ، ويفرجها المولى سبحانه وتعالى
بعد ذلك .

— وماذا أقول لمن سيسأل عنك ؟

— سافر يكمل تعليمه في الخارج .

— وكيف ستذهب إلى الكلية ؟

— هات لي الكتب ودع الباقي على الله وعلى .

سكت وجدى وراح يفكر في الأمر : الفكرة بالنسبة لي ممتازة .
أولا أبعده عنها تماما فلا تحاول محاولتها الأثيمة مرة أخرى ، وأخفى عنها أنه
في السجن . وثانيا سيكون تحت رقابتي دون أن يدري أحد .. ومن
ناحيته سيذاكر ولن يشغله شيء عن المذاكرة . وأنا أستطيع أن أجعل
السجن لي بالنسبة إليه . وستكون صلته بي مباشرة وأستطيع أن ألبى

— ٩١ —

جميع مطالبه فيصبح سجيناً غير سجين . الفكرة ممتازة .

وأعاده صديق من أفكاره المنفردة :

— ماذا قلت ؟

— أكمل إعداد ملابسك .

وراح صديق يكمل إعداد ملابس له في حزم وإصرار وقد أصبح وجهه كله عزماً وإقداماً .

* * *

وفي حجرة خاصة نزل صديق بالسجن ، وصدرت الأوامر أنه يستطيع أن يلتقى بمن يشاء من المساجين دون حرج عليه حتى لا يشعر بالوحدة .

وكان إدخال شخص إلى دار سينا . فالسينا على الأقل ستكون ثمن التذكرة ، أما السجن فلا يكلفه إلا إدعاء بأنه خطر على الأمن ، فقال شفاها ثم يصبح السجن هو المصير .

* * *

(١٥)

كثير الحديث حول زهيرة ، وغرف الكثيرات أن الفتى الذى تولت تربيته منذ الطفولة خرج من البيت إلى حيث لا يدرى أحد على الإطلاق . وتملكها الغيظ .. فالتهمة قاتلة .. ولا أحد يعرف دافعها عليه ، فإن سرها مع زوجها ظل حبيس صدرها و فراشها لا يعلمه أحد إلا الله . ومع الأيام كانت زهيرة تشعر بسعة التهمة .. واتساع اللفظ بها بين صويحباتها جميعا .. ولم تكن واحدة منهن لتجرؤ على مواجهتها بها . وهكذا واجهت موقفا عجبا .. تهمة ولا تهمة ، وحديث ولا إعلان ، ومناجاة بين النساء لا يرتفع إلى المواجهة ولا ينقطع .. ولم تكن زهيرة فتاة صغيرة بل كانت فى السن التى ينبغى فيه للنساء أن يكن بعيدات عن الشبهة كريمات السمعة .

ولو أن هذا الذى يطالعها اليوم كان أمرا طبيعيا فى حياتها ربما احتملته وضربت بالسمعة والشرف عرض الأفق ، ولكنها عاشت عمرها كله نقية السيرة لا يتناولها لسان إلا بالطهر والعفاف حتى وإن كان لسانا عدوا حادا جارحا .. ربما اهتمها بعضهن بالكبر أو ربما ذكرها لسان بالحدة والعنف .. ولكن لسانا ما لم يتعرض لعرضها قط . وهكذا واجهت زهيرة فترة مريرة من حياتها ، وزادها مرارة أنها لا تدرى كيف تخرس هذه الألسنة ..

إلا أن فكرة عجيبة طرأت لها لا تدري مأتاها ، وراحت تنفذها في إصرار ، وعاونها على ذلك أن زوجها كان في شبه قطيعة معها لا يسألها عن خروج من البيت أو دخول . فقد كان صديق في يده مطمئنا إلى أنه بعيد عنها كل البعد . وهو يدرى أنها لم تحاول أن تخطئ إلا مع صديق ، فهو منذ تزوج فرض عليها العيون الرواصد وأطلق خلفها أدواته الجهنمية التي لا يخفى سر عليها وأصبح واثقا منها كل الثقة .. أما صديق فجماله يفتن أعظم النساء عفة وأكثرهن نقاء وطهارة . ثم إنه معها في البيت .. وإذا قبل فالسر دفين ولن يتصور أحد أن علاقة تقوم بين فتى في مكان الابن وبين امرأة هي منه في مكان الأم .

إن تكن حاولت معه فهي بالقطع واليقين لن تحاول مع غيره .. فلتخرج ما طاب لها الخروج فهي في موقف صعب شديد ... وهى إن تكن تكسر عين زوجها بعجزه إلا أنها تشعر أن ما فعلته غير جدير بها ولا يبرره حال زوجها ، كما لا يبرره ثقها أن زوجها لن يستطيع أن يطلقها . فهي تدري أنه يحرص على أن يظل أمره خفيا عن الناس غاية الخفاء . وقد عمل على ذلك بكل السلطات التي في يده شرعية هذه السلطات مستمدة من قوامه الزواج ، أو غير شرعية مستمدة من السلطان الظالم والبغى والجبروت .

تأكدت زهيرة أن زوجها سيكون غائبا عن البيت في يوم الأربعاء فاختارت هذا اليوم لتدعو إلى الشاى جميع اللواتى اتهمنها بالعيون اللائمة أو العيون المتسائلة أو العيون المتلصصة .. أو بالابتسامه الخبيثة . وأصررت أن تدعو اللواتى تجربأن وسألنها كيف حال صديق لماذا لا نراه ؟ ..

وكان هذا السؤال غريبا لأن صديق كان بالنسبة لصويحباتها شبحا يسمعن عنه ولا يرينه منذ قدم إلى البيت ..

دعت أولئكن جميعا وأعدت لهن حفلة شاي باذخة أكثرت فيها من الفاكهة واختارت التفاح بالذات ، وذهبت خصيصا إلى من يسكن السكاكين فيجعلها بالغة الحدة .. وذهبت أيضا إلى أحد المصورين وأعطته صورة صغيرة عندها وطلبت إليه أن يكبرها فيجعلها بالحجم الطبيعي ..

وجاءت المدعوات وقدمت إليهن التفاح وانتظرت حتى بدأن يقشرن التفاح وأزاحت الستار عن الصورة المكبرة لصديق ، فبدت الصورة وكأن صاحبها هو المائل لا الصورة . وارتبكت السكاكين في أيدي النسوة وقطعن أيديهن وتصابحن .. هذا ملاك .. لم نرمثل هذا الجمال .. ليس هذا من البشر ..

— لا تلمنى إذن وأنتن قطعتن أيديكن ..
وسترت الصورة ، وفهم المدعوات أنه لا معنى لبقائهن بعد ذلك ..
فقد أسدل الستار على نهاية التمثيلية التى ألفتها زهيرة ..
وفي المساء اقتحمت زهيرة على وجدى غرفته ، وأصابه ارتباك شديد وراح ينتظر ماذا هى قائلة له .. ولم تقل كثيرا :

— هذا جواز سفرى ..

— ماله ؟

— أريد تأشيرة للأراضى الحجازية .

— ما زال الوقت بعيدا عن الحج .

— ٩٥ —

— سأقيم هناك حتى موعد الحج وأؤدي الفرض .

— من الآن إلى موعد الحج .

وفي حسم قاطع ..

— نعم .

وفي خضوع حازم :

— أمرك ..

* * *

(١٦)

نال صديق شهادة البكالوريوس .. ويوم أن أبلغه وجدى بالنتيجة
وبشره أنه نالها بدرجة الامتياز قال له شيئا عجيبا ..
— يا صديق أنا أعرف أنك على قدر كبير من العلم والحكمة .. وأنك
موصول الأسباب بالله سبحانه وتعالى ..
— الحمد لله ..
— رأيت رؤيا .
— قلها .. فكل رفيق في السجن يلجأون إلىّ لأفسر لهم ما يرون من
رؤى .. فهم كما تعلم لا يرون من الدنيا شيئا إلا عندما ينامون ..
قال وجدى :

— رأيت كأننى فى صحراء عريضة وحدى أشعر بالوحشة الشديدة
والانفراد ، ثم فجأة رأيت كأنما تنبت الصحراء حولى نوعا عجيبا من
النبات أحاط به كالسوار ، فجريت إلى أعواد النبات أحاول أن أزيجها فإذا
هى أعواد من حديد صلب لا يلين ولا يتنى .. وقد التصق كل عمود منه
بالآخر كأنه حائط لا فراغ فيه .. وفجأة اخترق هذا الحائط الحديدى
جماعة من الثمر كانت تخرق الحديد وتدخل منه ، ثم يعود الحديد إلى
الانضمام وكأنه ما لان للثمر ولا انفرج عنها .. والتفت الثمر حولى
وملأنى الرعب . ورحت أدور بعينى فى عيون الثمر فأجد غضبا عارما

— ٩٧ —

وأجد نيرانا لاهبة وصرخت .. وصحوت .. ما هذه الرؤيا .. ؟
— اسمع أنا عرفت الرؤيا ، ولكن لن أعبر لك عنها إلا عندما تأتى إلى فى
المرّة القادمة .. وتخبرنى أننى عيّنت مستشارا ماليا لوزارة الزراعة .
— حددت المنصب .. أيعقل أن تعين فى هذا المكان وأنت متخرج فى

هذا العام ..

— لا عليك .. اجعلنى أقابل وزير الزراعة ولن أطلب منه تعيينى إلا
بالدرجة التى يؤهلى لها تخرجى .. ولكننى أعرف فى نفسى أننى خبير فى
هذا المكان ، وأننى سأفيد مصر فائدة عظيمة فيه ..

— وما شأن هذا بالرؤيا .. ؟

— إن له شأن أى شأن ..

— ما ترى ..

— وشيء آخر ..

— ماذا ؟

— لقد قضيت هنا أربع سنوات وأنت أخبرتني أن السيدة حرمك
أصبحت لا تترك فرضا من فروض الله إلا أدته وأنها دائبة على قراءة
القرآن ، وأنها أصبحت إنسانا آخر ..

— هذا حق ..

— فلا معنى لبقائى هنا إذن ؟

— أنا تحت أمرك ..

— أخرج الآن معك ..

— لك هذا .. بيتى تحت أمرك ..

(الغفران)

— ٩٨ —

— بل تضعنى فى حجرة مفروشة ..

— هيا بنا ..

لقى وزير الزراعة وانهر به الوزير وعينه مستشارا خاصا له فى مكتبه .. وجاء إليه وجدى بهته ..

— ما الرؤيا ؟

— لقد انتهى عهدكم .. وعليك أن تعد نفسك لمواجهة الذين عذبتم .. إنهم هم الثور .. والصحراء بعض الذين يسأليوك .. والحديد هو الحصار الذى سيحيط بك ..

— أتعى أنتى ..

— أعنى أن لكل عهد نهاية ولكل أجل كتاب وليس ربك بظلام للعبيد ..

— شماتة ؟

— معاذ الله ما كنت لأشمت فىك .. وقد أكرمت مثنواى ولكنه الحق الذى عاهدت الله ألا أقول غيره ..

— الأمر لله من قبل ومن بعد ..

— سبحانه ..

منذ عين صديق لم يضع وقتا .. فقد طال به الحنين إلى أبويه .. كان يراقب بيت أبيه عن كثب .. وشهد أباه يخرج فى أحد الأيام معتمدا ذراع أمه .. ووضح له تماما أن أباه لا يرى . واعتصر الحزن قلب صديق ..

رعاك الله يا أبى لست أنا الذى صنعت بك هذا .. وإنما هما ابناك
الآخران ..

تمكن صديق من مكانه الجديد فى مكتب الوزير أن يعرف كل شىء عن
حالة الزراعة فى أرض أبيه .. وعرف أيضا أن أخويه قد جعلوا الزراعة
كلها موالح . واستقدم المفتش الزراعى المختص بمنطقة الأرض وعرف أن
أباه هو الذى يأخذ الأموال كلها وأنه رفض أن يعطى أى توكيل لأبنائه
حتى بعد أن كف بصره . وعرف من المفتش أنهم يبيعون الثمار إلى الوزارة
لأنها ثمار مثالية ..

* * *

(١٧)

تسلم عبد الغنى خطابا مسجلا من وزارة الزراعة أن الوزارة لن تشتري منهم ثمار هذا العام .. وأنهم يستطيعون مقابلة الأستاذ صديق وجدى بمكتب الوزير للمناقشة معه فى هذا الأمر على أن يكون ذلك بعد أسبوعين من تاريخه بديوان الوزارة ..

ونزل الخطاب على عبد الغنى نزول الصاعقة ، وسارع إلى أبيه يروى له أمر الخطاب وهو يتميز من الغيظ وقال صابر :

— هل ما زلت تحب المال هذا الحب يا عبد الغنى ؟ .. ماذا أنت صانع

به ..

وزلزلت كلمة الأب كيان عبد الغنى .. وفهم الخفى الواضح فى كلام أبيه ..

— ألانى لم أنجب ذرية يا أبت ؟ ..

— لا أنت ولا أخوك .. أتمحان المال لذاته ؟ إن ذلك لشأن عجيب ..

— أنهمل أمورنا لأننا بلا أولاد ؟ ..

— وفى السماء رزقكم وما تعدون .. كل ما فى الأمر أن ثمن المحصول

سيكون أقل من السنوات الماضية .. أليس كذلك ؟ ..

— وهل هذا قليل ؟

— ليس كارثة على كل حال .. اقرأ على الخطاب ..

وقرأ الخطاب ووجد أباه يقول بغير مناسبة :

— ١٠١ —

— ما الذى أذكرنى صديق الآن ..

وئارت هند :

— حرام عليك يا صابر .. إن كنت لا تريد أن ترعى نفسك فارحمنى

دون أن تذكر صديق ، وها أنتذا ترفض أن تعالج عينيك ..

— لا أريد أن أرى الحياة بدون صديق ..

— أليس هذا أمرا عجيبا ؟ وعلى كل حال ما الذى أذكرك صديق

الآن ؟ ..

وقال عبد الغنى فى يأس وإحباط :

— إنه لا يريد أن يبينى برأى فى شأن الخطاب ..

وقال صابر :

— كيف عرفت ذلك ؟ ..

— هذا واضح .

— إنك لا ترى الواضح يا عبد الغنى ..

— كيف ذاك ؟

— إن الخطاب يطلبك للمناقشة .. إذن فعدم الشراء ليس أمرا نهائيا ..

بل إن هناك شروطا جديدة .. أو هناك على الأقل كلام سيقال ..

— أعزك الله يا أبى ، لقد والله فتحت لى باب أمل من حيث لا

أدرى ..

* * *

نادى صديق ساعى مكتبه الذى يدعو به خضر وطلب إليه أن

يركب سيارة أجرة معه . واستجاب عجم خضر دون أن يسأل عن

القصـد . وكان مع صديق لفافة صغيرة يمسك بها في حنان .. وحين بلغت السيارة بيت أبيه أوقفها وقال لعم خضر :

— انزل إلى هذا البيت وأعط هذه اللفافة لمن يفتح لك الباب . وحين يسألك عما بها قل : إنها رسالة قديمة وجدت في أمانات البريد ووجدت عليها العنوان فقلت آتى بها إليكم ، ربما كان بها شيء مهم .

وفعل خضر ما طلبه إليه صديق بخداfireه ، وفتحت له هند الباب وهو ما توقعه صديق .. وفي طيبة واقتناع قبلت هند ما روى لها خضر ودخلت باللفافة إلى حجرة صابر .. وقصت عليه الأمر وهي تفتح اللفافة . وما إن رأت ما يغلفه الورق حتى رمت به صائحة .. بسم الله الرحمن الرحيم .. ووقع القميص على وجه صابر فإذا هو يقول في هدوء وطمأنينة وثقة :

— إنه قميص صديق .. ما كان الله ليخذلنى أبدا ..
وصاحت هند وهي تلقف القميص .. وقد أوشكت على الجنون ..
— أحقا ما أرى ؟ ..

وراحت تقبل القميص بدموعها وروحها وبكل كيائها ويقول صابر ثانية :

— ما كان الله ليخذلنى أبدا ..

وتجلس هند وهي تقول :

— أمعنى هذا أنه حى ؟

ويقول هو فى ثقة :

— أما التفسيرات والتخمينات فأتركها لك أما أنا ففى شأن آخر ..

— ١٠٣ —

— ماذا أنت صانع ؟

— كم الساعة الآن ؟

— ماذا تريد ؟

— كم الساعة ؟ .. أظنها العاشرة ..

— تقريبا ..

— هيا خذى ييدى ..

— إلى أين ؟

— ستعرفين ..

— يا صابر ربما كان الأمر كما رواه الرجل الذى أحضر اللقافة وتكون

رسالة قديمة ..

— أنا لن أناقش الأمر .. هيا بنا ..

— إلى أين ؟

— إلى الدكتور على مالك ..

— أحقا ..

— توكلى على الله ..

— رسالة خير والله .. رسالة خير .. لولم تعد إلينا إلا بعدك لكفى ..

كانت عملية صابر من العمليات الحديدية بأشعة الليزر .. وكان

الدكتور على مالك تواقا أن يقوم بها لصابر فقد كان يرى فيه واحدا من

رجال الله المخلصين ..

وقمت العملية ..

(١٨)

ذهب عبد الغنى وعبد الودود إلى مكتب صديق ولقيهما من فوره .
وراح عبد الغنى يتكلم دون أى مقدمات .
— يا سعادة البك إن الثمار التى ننتجها لا مثيل لها فى القطر كله فلماذا
ترفضون شراءها ؟ أهذا معقول . إنها أول مزرعة فى مصر ، وجميع
إنتاجها يصدر إلى الخارج و
واستمر الحديث طويلا وصديق يسمع لا يتكلم حتى إذا نفذت
كلمات عبد الغنى وأصبح لا يجد شيئا يقوله التفت صديق إلى عبد الودود
وقال له :

— وأنت ... ألا تقول شيئا ؟
— لا يا افندم ... قال أخى كل شيء ..
— ألا زلت على حالك هو يقول وأنت تسمع وتنفذ .
وفى بهر مذهول صاح كلاهما :
— ماذا ؟
وأكمل دون أن يعير ذهولهما أى التفات :
— كنت أتصور يا عبد الودود أنك مع السن ستصبح لك شخصية ،
ولكن للأسف أنت كما أنت لم تزدك السنون إلا ضعفا .
ونظر عبد الغنى إلى عبد الودود وقال :

— ١٠٥ —

— من هذا أيمكن أيعقل أيتصور أحد هذا ؟
وانتفض عبد الغنى واقفا في حيرة من يجابه الماضى فى مكان لا يتصور
أن يرى فيه أثرا منه ... وصاح :
— أهو أنت ... أصدىق أنت أنت صديق .
ويصيح عبد الودود وكأنه صدى صوت :
— أهو صديق ... صديق أخونا .. أهو صديق ؟
وفى ثبات حازم يصيح بهما صديق :
— اصمتا واسمعا ... اسمعا كلاما ظل كالإعصار فى نفسى منذ وعيت
الحياة ... كعزيف الريح كان وأن له أن ينتقل إلى اللذين أثاراه .
— ماذا ؟
— ماذا تقول ؟
وفى هدوء ثابت أطلق صديق عاصفته التى لازمته سنين العمر الواعى
كلها :
— لماذا أردتما قتل ؟
وصاح كلاهما كما لو كانت رصاصة قد أصابت كلا منهما :
— ماذا .
وفى هدوءه لا يزال يقول صديق :
— لقد غبت عنكما هذه السنوات وأنا لا تعرفان أننى سمعت المؤامرة
التى كنت تدبرها أنت يا عبد الغنى والتى وافقت عليها أنت يا عبد
الودود ، وأنتما جالسان بمقهى الملاهى .
وصاح عبد الغنى :

— ١٠٦ —

— سمعت ماذا ؟ سمعت ماذا ؟

وصاح عبد الودود :

— إذن فقد سمعت .

ويكمل صديق في ثبات :

— وجريت يومذاك مذعورا . ولو كنت قتلت لكنتما قاتلتى .

وانتظرت هذه السنوات أرفض العودة حتى أكون واثقا من نفسى وأنفى

عن نفسى خوف الأخ الأصغر يريد أخواه الكبار أن يقتلاه . وأنما اليوم

كلانا أضعف منى . وأنا أواجهكما .

وأجهش الأخوان باكين فقد كان البكاء هو كل ما يمكن أن يقال .

وقال صديق :

— بعض دموع ستحمل إلى نفسيكما الراحة أين هى من غذاب طفل

وفتى وشاب يعيش على الصدقة فى بيت لا يجمعه به نسب ولا تصله به

قراية ؟ ... ما بعض دموع أمام ذل السنوات والشعور بالضيق

والإحساس أننى فى أى لحظة قد أطرد من البيت ؟ ما بعض قطرات من ماء

العين وأنا الذى وجدت السجن أحب إلى من الحرية ، وعشت فيه لأقطع

ما بينى وبين هؤلاء الناس ؟ ابكيا ما شاء لكما البكاء فقد ألقيتما فى السنين

الطوال إلى عالم لا أموت فيه ولا أحيأ .

وقال عبد الغنى :

— ألا نطمع فى غفران .. إن الحياة التى اختارها الله لتكون سخطه على

آدم لابد أن يكون فيها أمثالا من الخاطئين .. وهى غير جديرة بأن تعاش ،

إن لم يكن فيها أمثالك من الصديقين الغافرين .

— ١٠٧ —

— وإن غفرت لحقي فكيف أغفر لحق أبنى ؟

— لقد عاد إليه نظره .

— لأنى أرسلت إليه قميصى، لقد حطمت رجلا لولا إيمانه لأحاط به

الفرع الأكبر من الهول ..

— هو سيففر .

— لأنه أب وأنه لم يعرف ما كنتما تدبران .

— أو تقول له ؟

— سنرى هلم بنا إليه .

* * *

وارتمى صابر فى أحضان صديق وعلا منهما بكاء الفرح ،
وأحاطت بالاثنتين ذراعا هند وقلبا . وراح صديق يقبل رأس أمه
ووجهها وعينها . إنها أمه الحق .. التى لا يخاف عندها ولا يعرى . وحين
هذا اللقاء نظر صابر إلى صديق ثم نظر إلى عبد الغنى وعبد الودود وقال
لصديق :

— إنك لن ترد لى عندك طلبا ..

— حتى إن كانت عودتى إلى حيث كنت ..

— أنا أعلم أنك ما هربت إلا فرعا من أخويك .

وقف الإخوة الثلاثة وأكمل صابر :

— أتذكر الرؤيا التى رويتها لى قبل أن نفترق ... إنك فى الرؤيا قد

غفرت فهل أرجو أن تغفر فى الحياة ؟. وكفاهما أنهما لم ينجبا ولدا ولا

ابنة .. إن السماء تعرف كيف توزع الأرزاق ..

— ١٠٨ —

ويقول صديق مطرقا :

— اللهم إني أغفر ، واللهم ارزقهما البنين والبنات ... واللهم لك
الحمد في الأولى والآخرة . اللهم تقبل دعاء ..
ويطرق صابر وهند وعبرات تسبق قولهما معا ..
— اللهم آمين ..

(نمت)

الاستاذ نروت ابانطة

- هارب من الايام
 - جذور فى الهواء
 - امواج ولا شاطئ
- وستظهر رواياته تباعا

الاستاذ الدكتور نبيل راغب

تلمس موهوب يسم « مكتبة مصر » أن تنشر إنتاجه

- بوابل الحب
- جبروت امرأة
- سور الأزيكية
- سوق الجوارى
- الجيل الضائع
- عصر الحريم
- غرام الأقاعي
- المذاهب الأدبية (فى النقد - يدرس فى الجامعات)
- قلعة الكباشى
- شق الثعبان
- درب الشوك
- الكوبية

الاستاذ عبد الستار فراج

- انتصار المتصورة

الاستاذ اسماعيل ولى الدين

- التجوم تبكى ايضا
- طائر اسمه الحب
- الأستاذ (بالاشتراك مع الأستاذ كمال الملاخ)

الاستاذ فؤاد طلبة

- حصان للبنت
- ومعى نصف القبر
- فنون الضمة
- صديقى
- يوسف ادريس والتجو
- الزمن يولد من جديد (مسرحية)
- الحلو مر

—••••—

مسلمات خاليدات فى ميدان التضحية والفداء

تأليف يوسف الحمادى

- ١ — سمية ام عمار
- ٢ — خديجة ام المؤمنين
- ٣ — صفية بنت عبد المطلب
- ٤ — أسماء ذات النطاقين
- ٥ — نسيبة بنت كعب
- ٦ — الخنساء

رقم الإيداع : ٨٨ / ٣٩٥١
الترقيم الدولي : X - ٠٤٠٨ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



دار مطر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه